

سُورَةُ الطُّورِ

حِينَ يَمُورُ سَقْفُ الْعَالَمِ وَيَبْقَى الْمُؤْمِنُ بِعَيْنِ اللَّهِ
رَحْلَةً مِنْ رَهْبَةِ الْقَسَمِ إِلَى سَكِينَةِ التَّسْبِيحِ



تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الطُّورِ

حِينَ يَمُورُ سَفْفُ الْعَالَمِ
وَيَقَى الْمُؤْمِنُ عَيْنَ اللَّهِ

رَحْلَةً مِنْ رَهْبَةِ الْقَسَمِ إِلَى سَكِينَةِ التَّسْبِيحِ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

فَهْرُسُ الرِّحْلَةِ

المَقْدِمَةُ حِينَ تَأْخُذُ السُّورَةُ قَلْبَكَ إِلَى حَافَةِ الْعَالَمِ
المَحَطَّةُ الْأُولَى حِينَ يَسْتَدْعِي الْقَسَمُ أَعْظَمَ شُهُودِ الْوُجُودِ
المَحَطَّةُ الثَّانِيَةُ حِينَ يَفْقِدُ الْعَالَمُ تَمَاسُكَهُ
المَحَطَّةُ الثَّالِثَةُ حِينَ يَنْكَشِفُ أَنَّ الْخَوْفَ الْقَدِيمَ كَانَ طَرِيقًا إِلَى الْأَمَانِ
المَحَطَّةُ الرَّابِعَةُ حِينَ يَعْجِزُونَ عَنْ رَدِّ الْوَحْيِ فَيُحَاوِلُونَ تَغْيِيرَ اسْمِهِ
المَحَطَّةُ الْخَامِسَةُ حِينَ يُحَاصِرُ الْإِنْكَارُ بِأَسْئَلَةِ الْوُجُودِ الْكُبْرَى
المَحَطَّةُ السَّادِسَةُ حِينَ لَا تَعُودُ الْمُعْجِزَةُ نَافِعَةً لِقَلْبٍ قَرَّرَ الْآيَةَ
المَحَطَّةُ السَّابِعَةُ حِينَ يَكُونُ الْعَالَمُ مُضْطَرِبًا وَأَنْتَ بِعَيْنِ اللَّهِ
الْخَاتِمَةُ مِنْ رَهْبَةِ الطُّورِ إِلَى سَكِينَةِ الْفَجْرِ

المقدمة

حين تأخذ السورة قلبك إلى حافة العالم

ليست سورة الطور حديثاً عن القيامة وحدها، بل هي زلزلة مبكرة توقظ في الإنسان ذلك الجزء الذي خدرته العادة، وألهاه المألوف، وأقنعتة صلابة الأشياء بأن العالم باقٍ على صورته هذه إلى الأبد. إننا نعيش بين سماء لا تضطرب، وجبال لا تسير، وأرض تحملنا كل صباح دون أن نتصدع تحت أقدامنا، حتى يتسرب إلى نفوسنا وهمٌ خفيٌّ بأن هذا الثبات من طبيعة الأشياء، وأن الكون قائمٌ بنفسه، وأن اليوم الذي نراه هو الصورة الأخيرة للوجود. فتأتي سورة الطور لتنتزع القلب من طمأنينته الكاذبة، وتوقفه أمام الحقيقة الكبرى: إن ما يبدو ثابتاً ليس إلا مخلوقاً ينتظر أمر الله، فالسماء التي تظلك ستمور، والجبال التي تراها أوتاداً ستسير، والبحر الذي تراه مستقراً سيسجر، والعالم الذي حسبته بيتاً دائماً ليس سوى ممرٍ قصيرٍ إلى عالم لا ينتهي.

ولكن السورة، وهي تفتح أمامك هذا المشهد المزلزل، لا تتركك في العراء. إنها تهدم ثقتك بالأشياء لكي تبني ثقتك بالله، وتزعزع سكون العالم في عينيك لكي تمنح قلبك سكينته لا تهتز، وتسوقك بين أهوال القيامة حتى تبلغ بك تلك الكلمة التي تلقي على روح النبي ﷺ - وعلى كل قلب يسير في طريقه - رداء الأمان: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. وبين اضطراب السماء وطمأنينة العناية تمتد رحلة السورة كلها؛ رحلة يبدأ فيها الإنسان واقفاً أمام قسم مهيب، ثم يرى المكذبين يدفعون إلى النار دفعا، ويلج المتقين في جنات النعيم، ويسمع حوارهم بعدما انقضى الخوف، ثم يقف أمام أسئلة الوحي وهي تهدم أوهام الإلحاد والطغيان سؤالا بعد سؤال، حتى لا يبقى في آخر الطريق إلا الصبر والتسبيح وانتظار الفجر.

وسورة الطور لا تعرض العقيدة في صورة أفكار باردة، بل تجعلها مشاهد تتحرك أمام العين. إنها لا تقول لك فقط إن القيامة حق، بل تجعلك تكاد تسمع اضطراب السماء، وترى الجبال وهي تخلع جذورها، وتشهد المكذبين وهم يدفعون إلى النار دفعا، ولا تقول لك فقط إن الجنة نعيم، بل تدخلك إلى مجالس أهلها، وترك السرر المصفوفة، والكأس المطهرة من اللغو والإثم، والذرية التي ألحقها الرحمة بآبائها، ثم تسمعك حديث النجاة من أفواه الناجين أنفسهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾. فَنَالَهُ عَيْنًا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّعِيرِ. إن الجنة هنا ليست صورة للذة فحسب، بل جواب كامل عن خوفٍ قديم، ودعاء طويل، وقلب كان يعيش بين أهله ولكنه لم يغفل عن المصير.

وفي وسط هذا الجلال كله تقف قضية الوحي. فالمعركة التي تصورها السورة ليست بين رجل وقومه، ولا بين شاعر وخصومه، بل بين خبر السماء وأهواء الأرض؛ بين نبي يحمل للناس الحقيقة، ونفوس لا تملك أن تنقض ما جاء به فتفتش له عن اسم يريحها من

الاستجابة: كاهن، مجنون، شاعر، متقوّل. ولذلك لا تطيل السورة الدفاع عن الرسول ﷺ دفاعاً جدلياً، وإنما تردّ الاتهامات إلى مصدرها الخفي: ﴿بل لا يؤمنون﴾. فالمشكلة لم تكن نقصاً في البرهان، بل إرادة تفرُّ من مدلوله؛ لأن الإيمان ليس اعترافاً ذهنيّاً محايداً، وإنما انقلاب في مركز السيادة داخل النفس، وانتقال من عبادة الهوى إلى العبودية لله.

هذه السورة لا تُقرأ من بعيد. إنها تطلب منك أن تدخلها بقلبك كله: أن تقف عند الطور كما وقف موسى أمام جلال النداء، وأن تنظر إلى الكتاب المسطور فتتذكر أن هذا الوجود لا يجري بلا علم ولا حساب، وأن ترفع بصرك إلى السقف المرفوع فلا تغترّ بهدوئه، وأن تنظر إلى البحر المسجور فلا يأمن قلبك الطاقة الكامنة وراء سكونه. ثم تدع السورة تسألك أسئلتها الحادة: أم خلقت من غير شيء؟ أم أنت الخالق؟ أم عندك خزائن ربك؟ أم تملك الغيب؟ أم لك إله غير الله؟ وحين تسقط أمام هذه الأسئلة جميع الدعاوى التي احتمت بها النفس، لا يبقى للإنسان إلا أن يعترف بفقره، ويعود إلى ربه، ويصبر لحكمه، ويسبح بحمده حين يقوم ومن الليل وإدبار النجوم.

فلنبداً الرحلة؛ لا لنمرّ على السورة مرور قارئ يبحث عن نهاية الصفحة، بل لنسمح لها أن تمرّ هي على قلوبنا، وأن تفتش في أعماق مخابها عن كل يقين مؤجل، وكل خوف غطّته الغفلة، وكل وهم اتخذ من ثبات العالم حجة على نسيان الآخرة.

حين يستدعي القسم أعظم شهود الوجود

﴿وَالطُّورِ ۖ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۖ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۖ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۖ وَالسَّعْفِ
الْمَرْفُوعِ ۖ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۖ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۖ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾

تبدأ السورة بقسم لا يترك للقلب مهراً من الجلال. لا مقدمة تمهّد للشهد، ولا حديث هادئ يقود إليه؛ بل يقف الطور فجأة في أول السورة، شامخاً بما يحمله من ذاكرة الوحي ورهبة المناجاة. والطور ليس جبلاً صامتاً في هذا السياق، وإنما موضع شهد أن السماء قد تخاطب الأرض، وأن إنساناً من تراب يستطيع أن يتلقى كلاماً من رب العالمين. إنه أثر قائم في جسد العالم على أن الوجود ليس مغلقاً على المادة، وأن وراء المحسوس أمراً ووحياً وتكليفاً. وما تزال الجبال في نظر الغافل حجارة مرتفعة، ولكن القرآن يكشف لها ذاكرة أخرى؛ فقد يكون الجبل صفحة من صفحات النبوة، ومقاماً يسمع عنده النداء، وشاهداً على لحظة غيرت مجرى التاريخ.

ثم يأتي القسم بالكتاب المسطور في رق منشور. والكتاب هنا يحمل إحياء الإثبات والتسجيل والانكشاف؛ فهو مكتوب لا يضيع، ومسطور لا يلتبس، ومنشور لا يظل مطوياً بعيداً عن الأبصار. إن أعمال البشر التي تبدو لهم لحظات عابرة لا تذهب في الفراغ، والكلمات التي يلقونها ثم ينسونها لا تسقط من حساب الله، والنيات التي لم يرها أحد لا تغيب عن العلم المحيط. وما أقسى المفاجأة حين يعيش الإنسان حياته كأنها كلام في الهواء، ثم يلقى في آخر الطريق كتاباً لم يترك حركة في يده، ولا خفقة في قلبه، ولا أثراً من آثار مروره إلا أحصاه.

إن وصف الكتاب بأنه مسطور يبدد وهم الفوضى، ووصف الرق بأنه منشور يبدد وهم الخفاء. فكل شيء هنا محسوب، وكل شيء هناك ظاهر. قد يستطيع الإنسان في الدنيا أن يعيد صياغة حكايته، وأن ينتقي من ماضيه ما يعرضه للناس، وأن يكسو دوافعه القبيحة بأسماء نبيلة، ولكنه سيقف يوماً أمام قصة حياته كما وقعت، لا كما رواها. وسيعرف أن العدالة الإلهية لا تعتمد على ذاكرة الشهود المحدودة، ولا على الوثائق التي يمكن تمزيقها، ولا على التاريخ الذي يكتبه المنتصر؛ لأن وراء ذلك كله كتاباً مسطوراً في رق منشور.

ثم يقسم الله بالبيت المعمور، ذلك البيت الذي تعمره عبادة الملائكة، كأن السورة تفتح نافذة من الأرض إلى العالم الأعلى. ففي الوقت الذي تضج فيه الأرض بجدال المكذبين،

توجد في السماء عبادة لا تنقطع، وطاعة لا يتخللها فتور، وتسبيح لا تفسده غفلة. وليس تمرّد الإنسان هو الصوت الوحيد في الوجود، وإن بدا له بسبب ضيقه أنه ملاً الكون؛ فالكون في حقيقته أوسع من صخبه، وملكوت الله عامر بجنود لا يحصيهم إلا هو. وما غرور الإنسان إلا ثمرة جهله بحجمه؛ إنه ينظر إلى بقعته الصغيرة فيتوهمها الوجود كله، ويسمع اعتراضه فيحسب أن الخليقة تشاركه اعتراضه، ولو كُشف له طرفٌ من العالم المعمور بالطاعة لاستحيا من وحدته في طريق التمرّد.

والبيت المعمور يقف في مطلع السورة في مقابلة خفية مع قلب الإنسان: فكما يُعمر البيت بالطائفين، يُعمر القلب بالذكر واليقين، وكما أن للبيت حياةً بمن يقصده، فإن للقلب حياةً بما يسكنه. قد يكون صدر المرء ممتلئاً بالأخبار والرغبات والصور والخصومات، ولكنه يظل خراباً إذا خلا من الله. وليس خراب القلب فراغه من الأشياء، بل امتلاؤه بكل شيء إلا الغاية التي خلق لها. إن بعض القلوب أسواق مزدحمة، ولكنها ليست بيوتاً معمورة؛ لأن المعنى الذي يمنح الأشياء مواضعها قد غاب عنها.

ثم يرتفع البصر مع القسم إلى السقف المرفوع. هذه السماء التي اعتادها الإنسان حتى كاد يفقد الدهشة أمامها ليست خلفية زرقاء معلقة فوق يومه، بل آية هائلة تحيط بعالمه. إنها مرفوعة بقدرة لا نتعب، قائمة بأمر لا يختل، محفوظة في نظام لو اضطرب جزء يسير منه ما بقيت للحياة صورتها التي نعرفها. غير أن الألفة تحجب المعجزة؛ فالإنسان يندesh من بناء شاهق شديده الأيدي، ثم يمر تحت سماء لا يرى لها عدداً دون أن يتحرك قلبه. وهكذا تصنع العادة حجاباً من البرود بيننا وبين أعظم الآيات.

إن السقف المرفوع لا يحدّثنا عن القدرة فقط، بل عن الرعاية أيضاً. نحن نعيش تحت تدبير مستمر لا نشعر بأكثره؛ نهمر علينا عطايا الحفظ قبل أن نعرف الأخطار التي صُرفت عنا، ونمر بنا الأيام داخل نظام بالغ الدقة، ثم ننسب سلامتنا إلى مهارتنا المحدودة. وما أقل ما نراه من أسباب بقائنا، وما أكثر ما يتولاه الله عنا دون أن نراه. كل صباح تصل فيه إلى يوم جديد هو رسالة عناية، وكل ليلة تنام فيها دون أن تحمل هم إدارة الكون من حولك اعتراف فطري بأن لهذا العالم رباً لا تأخذه سنة ولا نوم.

ثم يأتي البحر المسجور، فتجتمع في الكلمة صورة السكون وصورة الطاقة الخبأة. البحر الممتد أمام العين، بسطحه الذي قد يبدو وادعاً، ليس كما يظهر؛ ففي أعماقه أسرار وقوى وحدود لا يملكها الإنسان. وقد يكون معنى التسجير ملاءً أو إيقاده، وفي كلا الإيحاءين يشعر القلب أن ما يراه مستقراً يحمل في طبيعته استعداداً لأمر أكبر من إدراكه. إن العالم

ليس تلك القشرة الهادئة التي تلامس حواسنا، وما نعدّه أليفاً يمكن، حين يأتي أمر الله، أن يتحول إلى مشهد لا تحتمله الأبصار.

الطور، والكّاب المسطور، والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور: شهودٌ خمسة تُستدعى من ذاكرة الوحي، وبجل المصير، وعالم العبادة، وفضاء الكون، وأعماق الطبيعة، لكي تحمل إلى القلب حقيقة واحدة لا تقبل التردد: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾. وكلمة واقع لا تقول إن العذاب محتمل، ولا إنه قريب فحسب، بل تنقله من مساحة التوقع إلى صلابة الحقيقة. إنه واقع في علم الله ووعده، وإن لم يقع بعد في زمن البشر. فالمستقبل عند الإنسان مجهول ينتظر أن يحدث، أما وعد الله فحق ثابت لا يزيده مجيء الزمن يقيناً.

ولم تقل الآية: إن العذاب لواقع، بل قالت: ﴿عَذَابَ رَبِّكَ﴾. وفي إضافة الرب إلى النبي ﷺ معنى بالغ الرقة وسط الوعيد؛ فالذي ينزل العذاب بالمكذّبين هو ربك الذي يراك، ويحفظك، ويرى ما يصنعون بك. إنهم ليسوا خارج سلطانه، وأذا هم ليس غائباً عن علمه، وتأخر العقوبة ليس عجزاً عن أخذهم. وفي الوقت الذي يسمع فيه المكذب كلمة العذاب، يسمع الرسول في كلمة ربك معنى الولاية والتثبيت. وهكذا تحمل العبارة الواحدة رهبةً لقوم وسكينةً لقلب.

﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾. عبارة قصيرة تغلق كل باب من أبواب الوهم. لا قوة تدفعه، ولا حيلة تؤخره، ولا نسب يحول دونه، ولا جاه يساوم عليه. لقد عاش الإنسان في الدنيا وهو يدفع عن نفسه ما يكره بالمال والسلطان والعلاقات والمكر، حتى ظن أن لكل شدة منفذاً، ولكل حكم واسطة، ولكل مأزق ثمناً. ولكن ذلك اليوم يأتي وقد سقطت شبكة الأسباب كلها، ووقف الإنسان عارياً من أدواته القديمة، فلا يبقى إلا عدل الله وما قدّمت يداه.

وهنا ينبغي ألا نقرأ الوعيد كأنه خبر عن آخرين. إن من حيل النفس أن تجعل آيات النار مرآة ترى فيها وجوه خصومها، لا وجهها هي. تسمع الحديث عن المكذّبين فتستحضر من تكذيبهم ظاهر، وتنسى ما قد يختبئ في داخلها من تكذيب عملي: أن تعرف الحساب ثم تعيش بلا استعداد، وأن تؤمن بأن الله يرى ثم تعصيه كأنك غائب عنه، وأن توقع بزوال الدنيا ثم تبني علاقتك بها كأنها خالدة. ليس التكذيب دائماً جملةً يقولها اللسان؛ فقد يكون نظام حياة يناقض ما يقر به اللسان.

إن مطلع سورة الطور يعيد ترتيب إحساس الإنسان بالجدية. فهذا الوجود ليس مسرحاً للعبث، والعمر ليس فسحةً بلا غاية، والعمل لا يتبخر بعد وقوعه. هناك كُتاب، وهناك

شهادة، وهناك يوم، وهناك عذاب لا دافع له. غير أن المقصود من هذه الرهبة ليس أن يتحول الإيمان إلى فرع عقيم، بل أن يستيقظ القلب قبل أن تأتي اليقظة التي لا ينفع معها عمل. إن الخوف في القرآن ليس هاويةً يُدفع إليها المؤمن، وإنما جرس رحمة ينقذه من هاوية الغفلة. وما دام الإنسان يسمع الإنذار في الدنيا، فما يزال الباب أمامه مفتوحاً، لأن أشد الناس حرماناً ليس من خاف عند سماع الوعيد، بل من فقد القدرة على الخوف حتى فوجئ بالحقيقة التي كان يسخر منها.

وفي مطلع السورة سرٌّ آخر: إن الطريق إلى اليقين يبدأ باستعادة الدهشة. حين ترى الطور شاهداً، والكتاب حاضراً، والبيت معموراً، والسماء سقفاً مرفوعاً، والبحر قوةً مسجورة، لن يعود العالم حولك أشياء صامته. سيغدو الوجود كله خطاباً، وستشعر أن الآيات تطوقك من كل جهة، وأن الغفلة ليست غياب الأدلة، بل إغلاق القلب عن سماعها. وعندها تدرك أن الله لم يترك الإنسان في كون أبكم، وإنما أحاطه بشواهد لو أصغى إليها لسمع الحقيقة قبل أن يراها يوم القيامة.

وهكذا لا تزال السورة في بدايتها، لكنها نقلتنا بالفعل من جبل الوحي إلى كتاب المصير، ومن عبادة السماء إلى بنية الكون، ومن سكون البحر إلى حتمية الجزاء. والآن، بعدما ثبتت الحقيقة بالقسم، ستفتح السورة ستار اليوم الموعود، لترى ماذا يحدث حين يفقد العالم توازنه، وتُمور السماء موراً، وتسير الجبال سيراً، ويكتشف اللاعبون أن اللحظة التي جعلوها موضع سخرية قد صارت هي الواقع الوحيد الذي لا يستطيعون الفرار منه.

حين يفقد العالم تماسكه ويسقط وهم الثبات

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۖ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ۖ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۖ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۖ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۖ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ ۖ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

بعد أن أقامت السورة شهودها العظام، وأعلنت أن عذاب الله واقع لا دافع له، فتحت للعين نافذة على اليوم الذي يتحقق فيه ذلك الوعد. ولا تبدأ الصورة بالإنسان، بل بالسما؛ لأن الإنسان الذي عاش عمره يظن أن الوجود يدور حوله، وأن أزماته الشخصية هي مركز العالم، سيشهد يوماً أزمة العالم نفسه. السماء التي كانت أعلى ما تراه عيناه، وأشد ما يستقر في حسه، تبدأ بالمران. والجبال التي اتخذها مثلاً للرسوخ تُنزع من سكونها وتسير. لقد جاء اليوم الذي تتخلّى فيه الأشياء عن صفاتها المألوفة، فلا السماء تبقى سقفاً ساكناً، ولا الجبال تبقى أو تاداً ثابتة، ولا الإنسان يجد في العالم موضعاً يستند إليه.

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾. في كلمة تمور حركة مضطربة لا تهدأ، وذهاب وجمي، وتخلخل لذلك البناء الذي لم يعرفه الإنسان إلا مستقراً فوقه. وليست الرهبة في أن يحدث شيء غريب في جانب من جوانب العالم، بل في أن يصيب الاضطراب أعظم ما كان يمثل الثبات في الوعي البشري. فنحن نرفع أبصارنا إلى السماء كل يوم، ولكننا لا نراها تتراجع أو نتقدم، ولا نتخرف عن نظامها، ولا يبدو عليها أثر الوهن. ولهذا يصبح مورانها إعلاناً بأن النظام الذي حمل الحياة قد أتم مهمته، وأن الإذن الذي أبقى الأشياء في مواضعها قد جاء الآن بتغييرها.

إن السماء لا تمور من تلقاء نفسها، كما لم تكن ثابتة من تلقاء نفسها. وراء الحالتين أمر الله: أمرٌ أمسكها حين شاء لها أن تبقى، وأمرٌ يغيّرها حين ينقضي أجل البقاء. وما يراه الإنسان من قوانين الكون ليس قوةً مستقلة عن خالقها، بل صورة من صور انتظام مشيئته. لقد اعتاد البشر تكرار الظواهر حتى تخيلوا أن التكرار هو الذي يخلقها، وسَمّوا وصفهم لكيفية وقوع الشيء تفسيراً لسر وجوده، ثم غفلوا عن السؤال الأعمق: مَنْ أقام القانون؟ ومن أبقى الكون وفيّاً له؟ ومن يستطيع أن يأذن بانتهاء النظام كله في لحظة واحدة؟

إن القيامة لا تهدم العالم عبثاً؛ بل تكشف حقيقته. تكشف أنه لم يكن قائماً بذاته لحظة واحدة، وأن ثباته الطويل لم يكن استقلالاً، بل إمساكاً إلهياً مستمراً. وحين تمور السماء، لا تبدأ عبوديتها لله في ذلك اليوم، وإنما يظهر للعيان ما كان واقعاً منذ البداية: أنها مخلوقة خاضعة، تستقر إذا أمرها، وتمور إذا أمرها، وتبقى ما شاء لها البقاء، ثم تتغير حين يشاء.

ولآية أثر آخر في النفس: إنها تهزُّ كل سماء صغيرة بناها الإنسان فوق حياته، ثم ظن أنها لن تضطرب. للناس سموات نفسية يلوذون بها: مكانة اجتماعية، أو سلطة، أو ثروة، أو شهرة، أو جسد قوي، أو بيت يظنون أنه يحميهم من مفاجآت الوجود. ومع مرور الزمن يتحول السبب في داخلهم إلى سقف لا يتصورون سقوطه. فإذا كانت السماء الحقيقية نفسها ستمور، فكيف يأمن الإنسان سقوفه الواهية؟ وإذا كان هذا البناء الكوني الهائل لا يملك لنفسه دواماً، فمن أين أخذت الأشياء الصغيرة كل ذلك اليقين الذي منحناه لها؟

ثم تنزل العين من السماء المضطربة إلى الأرض المتحركة: ﴿وَسِيرُ الْجِبَالِ سِيرًا﴾. لا تنهار الجبال في مواضعها فحسب، بل تسير. وكأن الحركة التي أصابت أعلى المشهد تمتد إلى أفضله وأرضه. السماء تمور، والجبال تسير، والإنسان بينهما لا يجد فوقه ما يظل ثابتاً، ولا تحته ما يطمئن إليه. لقد استعار البشر من الجبال معنى الرسوخ، فقالوا عن الرجل الصابر إنه جبل، وعن الدولة القوية إنها راسخة كالجبال، وعن اليقين العميق إنه لا تزغزه العواصف؛ ثم جاء القرآن ليخبر أن الجبال نفسها لها أجل في الثبات، وأن الرسوخ المطلق ليس لمخلوق، وإنما لله وحده.

وفي التعبير ﴿وَسِيرُ الْجِبَالِ سِيرًا﴾ تأكيد يحول المشهد من احتمال تخيله النفس إلى حركة تكاد تراها العين. تسير الجبال فعلاً، لا مجازاً في هول اليوم، ولا مبالغة في وصف الاضطراب. وتلك واحدة من طرائق القرآن في تحرير الإنسان من سجن المألوف؛ لأن العقل قد يظن أن ما لم يره مستحيل، مع أن معظم حقائق الوجود كانت خارج تجربته قبل أن يعرفها. وما القيامة إلا انتقال من نظام ألفناه إلى نظام لم نألفه، يجري كلاهما بقدرة الله التي لا يحدها مألوف البشر.

لكن العجيب أن السورة لا تقف طويلاً عند انهيار الكون، كأن موران السماء وسير الجبال ليسا أعظم ما في ذلك اليوم. فبعد هاتين الصورتين تنتقل سريعاً إلى المصير الإنساني: ﴿قَوْلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. إن الكارثة الحقيقية ليست أن يتغير العالم من حولك، بل أن تتغير وأنت غير مستعد لما بعده. ليس الهول في أن تسير الجبال، وإنما في أن تصل أنت إلى الحساب بقلب مكذب وعمل خاسر. فالكون يؤدي مهمته ثم ينقضي على الطاعة، أما

الإنسان فقد مُنح الاختيار، ولذلك يكون هلاكه الأخطر حين يصل مختاراً إلى المصير الذي أُنذر به.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. لم تقل: للجاهلين؛ لأن الجهل قد يُرفع بالتعليم، ولكن التكذيب هنا موقف يتجاوز نقص المعرفة إلى رفض الحقيقة بعد مجيء دلائلها. إن المكذب لا يعيش دائماً بلا دليل، بل قد يعيش محاصراً بالأدلة، ثم يعيد تفسيرها كيلا تلزمه. وقد يرى الحق واضحاً، ولكنه يعلم أن الاعتراف به سيطالبه أن يغير طريقه، فيفضل تشويه المرأة على إصلاح الوجه. ومن هنا كانت مشكلة المكذبين أخلاقية بقدر ما هي معرفية؛ إنهم لا يرفضون خبراً فقط، بل يحمون شكلاً من الحياة لا يريدون أن يتخلوا عنه.

ثم تكشف السورة حالهم في الدنيا بكلمات قليلة: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾. والخوض هو الدخول في الباطل والحديث المضطرب بلا هدى، كما يخوض المرء في ماء لا يرى قراره. وقد اختارت الآية حرف في، فكأن الخوض ليس كلمة عابرة خرجت منهم، بل يحيط يكتنفهم ويعيشون داخله. إنهم لا يقتربون من الحقيقة ليعثوا عنها، وإنما يدخلون النقاش وهم يريدون النجاة منها. يتنقلون بين شبهة وأخرى، لا لأن الشبهة أقنعت عقولهم، بل لأنها تؤجل لحظة الخضوع.

ولم تقل الآية: يخوضون فحسب، بل قالت: ﴿فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾. فاللعب يكشف استهانتهم بما يتحدثون عنه. جعلوا المصير موضوعاً للسخرية، والوحي مادةً للتندر، والنبوة هدفاً للاتهام، والآخرة قصةً يتفكهون بإنكارها. وكانوا يظنون أن خفة الضحك تخفف ثقل الحقيقة، وأن تسمية الجد لعباً تحوله إلى لعب. لكن الحقائق لا تتغير بالأسماء؛ تستطيع أن تسخر من النار، ولا تستطيع بسخريتك أن تطفئها، وتستطيع أن تنكر الحساب، ولا تستطيع بإنكارك أن تلغيه.

ما أشد دقة هذا الوصف في كشف نفسية الهارب من الحقيقة. فهو لا يناقش دائماً ليصل، بل قد يناقش كي يظل متحرّكاً فلا يصل أبداً. يطرح سؤالاً، فإذا جاءه الجواب انتقل إلى غيره، لا لأن الجواب ضعيف، بل لأن الوقوف عنده قد يحمله مسؤولية. إن الخوض حركة بلا وجهة، واللعب فعل بلا غاية، فإذا اجتمعا في قلب تحولت الحياة كلها إلى دوران طويل حول الحقيقة دون الدخول إليها.

وقد يكون الإنسان جاداً في مظهره، غارقاً في المشروعات والمواعيد والحسابات، ولكنه عند ميزان الآخرة لاعب؛ لأنه أمضى عمره يبني ما سترك، وأهمل ما سيأخذ معه. ليس

اللعب مقصوراً على الضحك واللهو الظاهر، بل قد يرتدي ثوب العمل المتواصل إذا كان العمل كله منفصلاً عن الغاية التي خلق الإنسان لها. ورب رجل أضع ساعات قليلة في لهو مباح ثم عاد إلى رشد، ورجل أمضى عقوداً في جدّ دنيوي لا يرفع رأسه إلى الآخرة؛ فأيهما كان أعمق غرقاً في اللعب؟

إن خطورة الخوض أنه يمنح صاحبه شعوراً وهمياً بأنه يفكر. إنه يتكلم كثيراً عن الدين والوحي والوجود، فيحسب كثرة الكلام علامةً على عمق النظر، بينما قد يكون الكلام ستاراً يحول بينه وبين السؤال الصادق. الفكر الحقيقي لا يُقاس بعدد الأسئلة التي يستطيع الإنسان إثارتها، وإنما بشجاعته في قبول الجواب حين يقوم عليه البرهان. وأشرف العقل ليس الذي يحسن فتح الأبواب كلها، بل الذي يعرف الباب المؤدي إلى الحق ويمتلك تواضع العبور منه.

ثم يتقلب المشاهد من لعب الإرادة إلى قهر المصير: ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاءً﴾. والدع هو الدفع بعنف وشدة. كانوا في الدنيا يدخلون الخوض مختارين، ويتنقلون بين الباطل في حرية، فإذا جاء اليوم الآخر فقدوا قدرة الاختيار، وصاروا يدفعون إلى المصير دفعاً. ويا له من انقلاب! كانوا يدفعون الحق بعيداً عن قلوبهم، فأصبحوا هم المدفوعين. وكانوا يصدون الناس عن سبيل الله، فأصبحوا يساقون إلى النار لا يملكون لأنفسهم اتجاهاً آخر.

في الدنيا جاءهم الوحي بلطف التذكير، وخاطب عقولهم، وفتح لهم أبواب الرجوع، وأملهم سنةً بعد سنة، وكان في وسع الواحد منهم أن يتوقف في أية لحظة ويقول: ربّ إني رجعت. أما هناك فقد انتهى زمن الاستجابة الاختيارية، ولم يعد الطريق مفتوحاً للتراجع. ولهذا كانت كل لحظة إمهال في الدنيا نعمة لا يعرف قدرها إلا من تخيل نفسه بعد انقضاء المهلة. إنك الآن تستطيع بكلمة استغفار صادقة أن تغير وجهة مصيرك، وتستطيع بركعتين في ظلمة الليل أن تفتح في قلبك طريقاً إلى الله، وتستطيع برّد مظلمة أن تخلّص نفسك من وقعة ثقيلة؛ أما إذا صار الغيب شهادة، فلن يعود التصديق اختياراً يثمر النجاة.

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾. لا يقال لهم: هذه نار فحسب، بل تربط النار بتاريخهم معها: التي كنتم بها تكذبون. كأن العذاب لا يواجه أجسادهم وحدها، بل يواجه ذاكرتهم أيضاً. هذه هي الحقيقة التي سخرتم منها، وهذه هي النهاية التي استبعدتموها، وهذا هو الخبر الذي جاءكم فلم تمنعوه من قلوبكم لحظة جد. فكل لسان تهكم، وكل مجلس استهزاء، وكل شبهة اتُّخذت مخبأً من التكليف، يعود الآن جزءاً من المشهد.

إن من أشد ألوان الحسرة أن يرى الإنسان الحقيقة التي أمضى حياته في إنكارها. فالجاهل قد يفاجأ بما لم يعلم، أما المكذب فيفاجأ بما كان يُنبأ به ثم يرده. وهو لا يرى النار وحدها، بل يرى معها جميع الفرص التي أضاعها: موعظة مرّت على قلبه ثم أعرض، وآية سمعها ثم شغل نفسه عنها، وصديقاً صالحاً دعاه فهزئ منه، ومصيبةً رقت قلبه قليلاً ثم عاد إلى قسوته، وليلةً شعر فيها بقرب الله ثم أنحد ذلك الشعور بمعصية جديدة. إن الماضي كله يقف حول النار شاهداً على أن الطريق إليها لم يكن بلا لافتات تحذير.

ثم يأتي السؤال الذي يحمل تويحاً يمزق آخر ستار من ستائر المكابرة: ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾. لقد كانوا يصفون الوحي بالسحر، ويزعمون أن ما جاء به الرسول ﷺ خداع للأبصار والعقول. والآن تُعاد إليهم كلمتهم في المكان الذي لا تنفع فيه: أفسح هذا؟ أهذه النار وهم أيضاً؟ أهذا اللهيّب حيلة لغوية؟ أهذا العذاب صورة اخترعها محمد ﷺ ليؤثر في السامعين؟ أم أن العمى الذي نسبتموه إلى غيركم كان مستقراً فيكم منذ البداية؟

في هذا السؤال عدالة بيانية مهيبة؛ فالكلمة التي استخدموها لإبطال الحقيقة ترجع إليهم بعد أن صارت الحقيقة محيطة بهم. وما أكثر الكلمات التي يخترعها الإنسان ليحمي نفسه من الوضوح! يسمي استقامته ضعفاً، وانحرافه حرية، وعبوديته لشهوته تحقيقاً للذات، وفراره من التكليف تحرراً من الوصاية. والأسماء تمنحه مهلة نفسية، لكنها لا تبدل جوهر الأشياء. وفي الآخرة تُنزع المصنقات كلها، ويظهر كل فعل باسمه الحقيقي.

﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾. كانوا في الدنيا لا يبصرون لأنهم لم يريدوا أن يبصروا، أما الآن فالنار أمامهم، ومع ذلك يحمل السؤال معنى التحقير للعمى الذي اختاروه طويلاً. فالبصر ليس وظيفة العين وحدها؛ قد تكون العين مفتوحة، والحجة ظاهرة، ولكن الهوى يقيم بينهما حجاباً. وما يسمى أحياناً أزمة دليل يكون في حقيقته أزمة استعداد أخلاقي لقبول الدليل. فالإنسان لا يرى بقوة البرهان وحدها، وإنما يرى كذلك بسلامة الموضع الذي يستقبل البرهان في داخله.

ثم يجيء الأمر الذي يطفئ آخر وهم في النجاة: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾. ما أفسى أن يصبح الصبر وعدمه سواء! ففي الدنيا كان الصبر مفتاحاً، يصبر المؤمن عن المعصية فينجو، ويصبر على الطاعة فيرتقي، ويصبر على البلاء فيؤجر. كان الصبر فعلاً يغيّر المصير. أما في النار فقد انتهى زمن الصبر النافع، وصار الاحتمال والجزع سواءً في عدم رفع العذاب. لقد وضع الله الصبر في أيديهم يوم كان يستطيع أن ينقذهم، فلم يستعملوه، فلما جاء اليوم الذي يتمنون فيه أثره لم يعد له أثر.

هذه المقابلة جدية بأن توظف القلب: في الدنيا مشقة قصيرة يستطيع الصبر أن يحوّلها إلى نعيم أبدي، وفي الآخرة مشقة لا نهاية لها لا يستطيع الصبر أن يخفف منها شيئاً. ومع ذلك يهرب الإنسان من صبر الساعة إلى ألم لا ينقضي. تثقل عليه لحظة مقاومة للشهوة، أو ثبات على الحق، أو نهوض إلى الصلاة، أو إمساك اللسان؛ كأن التعب العابر أكبر من أن يحتمل، ثم لا يستحضر ما قد تقوده إليه راحة اللحظة من حسرة طويلة.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. بهذه الجملة يُغلق باب الاعتراض. فلا ظلم، ولا عقوبة بلا سبب، ولا مصير انقطع عن مقدماته. إنما تلقون ما صنعت أعمالكم. والنار ليست حدثاً غريباً أُحْم على حياتكم من خارجها، بل هي النهاية التي كانت أعمالكم تسير إليها، وإن حجت اللذة العاجلة عنكم رؤية الطريق. فلكل اختيار امتداد لا نراه كاملاً ساعة الاختيار، وكل معصية تستبطن نهايةً لو كُشفت للإنسان صورتها لنفر منها قبل أن يمد يده إليها.

وتحمل الآية مسؤولية فردية شديدة الوضوح: ما كنتم تعملون. لا ما كان يفعله مجتمعكم، ولا ما ورثتوه عن آبائكم، ولا ما زينّه لكم قادّكم، ولا ما اعتاده الناس من حولكم. قد تفسر البيئة انحراف الإنسان، لكنها لا تحوّل مسؤوليته بعد أن جاء الحق وأعطى قدرة الاختيار. وكل محاولة للاحتماء بالجماعة تسقط حين يقف كل امرئ بعمله. فالناس يستطيعون أن يتشاركوا الخوض في الدنيا، لكنهم لا يستطيعون أن يتقاسموا تبعه العمل في الآخرة.

وليس جملة ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تهديداً للمكذب وحده، بل هي قاعدة تمنح المؤمن طمأنينة عميقة؛ فإذا كان الجزاء متصلاً بالعمل، فلن تضع عند الله خطوةً مشيتها إليه ولم يرها الناس، ولا دمعاً غلبتكم في خلوة، ولا مقاومةً لشهوة لم يعلم بمعركتها أحد، ولا كلمة حق قلّتها فدفعت ثمنها، ولا إحسان أخفيته حتى نسيت أنه أنت. إن الدقة التي تحصي على الظالم ظلمه هي نفسها التي تحفظ للمحسن إحسانه. والعدل الذي يجعل النار نتيجةً للعمل هو العدل نفسه الذي سيفتح بعد قليل أبواب الجنات للمتقين.

لقد بدأت هذه المحطة بسماء تمور وجبال تسير، وانتهت بالعمل الإنساني. وكان السورة تقول: حين يسقط البناء الكوني كله، يبقى ما بنيته في روحك. السماء التي عشت تحتها ستتغير، والأرض التي مشيت عليها ستتغير، والجبال التي رأيتهما ستزول، لكن فعلك لن يزول؛ لأنه انتقل من العالم العابر إلى الكآب الباقي. وما أعجب الإنسان: يعتني بالبيت الذي ستركه، وبالاسم الذي سينساه الناس، وبالصورة التي ستذوب في التراب، ثم يقلّ اعتناؤه بالعمل الذي سيجده قائماً أمامه بعد أن تبدل السماوات والأرض.

وفي اللحظة التي يبلغ فيها المشهد ذروة الرهبة، تغير السورة وجهتها. فمن النار التي يُدْعُ إليها المكذبون، تنفتح أبواب الجنات التي يدخلها المتقون؛ ومن الصبر الذي لم يعد ينفع أهل العذاب، تنتقل إلى نعيم كان ثمرة صبر طويل لم يره أحد. هناك سيظهر أن الخوف الذي عاش في قلوب المؤمنين لم يكن ظلمةً أفسدت حياتهم، بل نوراً أنقذ مصيرهم، وأن الذين كانوا في أهلهم مشفقين سيجلسون يوماً في الأمان، يتذكرون كيف عبروا الطريق، ويقولون في تواضع العارفين: لم تكن النجاة بقوتنا وحدها، ﴿فَنَّ اللَّهَ عَلَيْنَا﴾.

حين ينكشف أن الخوف القديم كان طريقاً إلى الأمان

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١﴾ فَالْكِهَيْنِ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٥﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيهَا كَهَيِّ لَحْمٍ مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٦﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا نَعْوٍ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمُ ﴿٧﴾ وَيطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴿٨﴾ وَاقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٩﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿١٠﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿١١﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾

بلا فاصل طويل، وبلا انتقال يتيح للنفس أن تستريح، تنقلنا السورة من النار إلى الجنة. فمن الذين يدعون إلى جهنم دعاءً، إلى المتقين المستقرين في جنات ونعيم، ومن وجوه تواجده بالحقيقة التي كذبت بها، إلى أرواح تنلقى ثمرة الحقيقة التي عاشت لها. إن المسافة بين المشهدين ليست مسافة مكان فقط، بل هي المسافة بين موقفين من الله في الدنيا: قوم عاشوا في خوض يلعبون، وقوم عاشوا في أهلهم مشفقين. والإنسان في هذه الحياة يختار، في الحقيقة، أي المشهدين سيقم فيه إلى الأبد، وإن بدا اختياره الآن حركة صغيرة لا يكاد يلتفت إليها.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾. لم تقل الآية: إن المتقين يدخلون جنات، بل تصوّرهم مستقرين في جنات ونعيم، كأن النعيم قد صار عالمهم الذي يحيط بهم من كل جهة. ففي الدنيا كان المؤمن يعيش داخل شبكة من المخاوف: يخاف على إيمانه، ويخاف من تقلب قلبه، ويخاف أن تغلبه نفسه، ويخاف أن يلقي الله وفي عنقه حق لأحد. أما هنا فقد خرج من محيط الخوف كله، وصار داخل النعيم. لم يعد النعيم لحظة تزوره ثم تنقضي، ولا متعة يقف القلق وراءها ينتظر، بل أصبح مقاماً شاملاً لا تسلسل إليه نهاية ولا منغص.

وقد سمّتهم الآية المتقين، فلم تنسبهم إلى قبيلة، ولا طبقة، ولا صورة اجتماعية، وإنما إلى الصفة التي صاحبت رحلتهم في الدنيا: التقوى. والتقوى ليست خوفاً سلبياً يعزل الإنسان عن الحياة، بل يقظة داخلية تجعله يرى أبعد من اللحظة. المتقي لا يترك المعصية لأنه فقد الرغبة، وإنما لأنه رأى في قلبه ما وراء الرغبة. ولا يؤدي الأمانة لأن الخيانة متعذرة عليه،

بل لأن نظر الله إليه أقرب من فرصة الإفلات من نظر البشر. إنه يعيدش في عالم الغيب وهو يمشي في عالم الشهادة، ولهذا تبدو اختياراته غريبة لمن لا يرى إلا اللحظة الحاضرة.

التقوى أن تجعل بينك وبين ما يخطط الله وقاية، لا من حجارة ولا من مسافات، بل من طاعة ومحبة وخشية. وكل مرة قدم فيها المتقي رضا الله على هوى نفسه كان يبنى جزءاً من تلك الوقاية، حتى إذا جاء اليوم الذي تسقط فيه الوقايات الأرضية كلها، وجد ما بناه قائماً بينه وبين النار. وما أرحم الله إذ لم يجعل النجاة متوقفةً على قوة الجسد أو كثرة المال أو حدة الذكاء، وإنما جعلها متاحةً لقلب يراقبه، فيستطيع الفقير والمريض والمجهول أن يبلغوا بالتقوى مقاماً لا يبلغه صاحب السلطان إن خلا قلبه منها.

﴿فَاكْهِنَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾. والفكاهة هنا انبساط وسرور وتلذذ، بعد حياة كان المؤمن فيها يحمل جِدَّ المصير في قلبه. لم يكن عابساً لأنه يكره الفرح، ولكنه كان يعرف أن فرح الدنيا ناقص، وأن وراء كل اجتماع فراقاً، ووراء كل صحة مرضاً، ووراء كل شباب ضعفاً، ووراء كل ملك زوالاً. أما الآن فقد جاء الفرح الذي لا يتبعه حزن، والسرور الذي لا يتسلل إليه خوف النهاية. لقد صار في إمكان الروح أن تنبسط انبساطاً كاملاً؛ لأنها لم تعد تحرس نعمتها من الفقد.

ولم تقل الآية: فاكهين بما ملكوا، وإنما قالت: ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾. فالنعيم كله عطاء، والعبد لا يدخل الجنة دخول المستحق الذي يستوفي أجراً على الله، وإنما دخول المرحوم الذي تداركته المنّة. لقد عمل، نعم، ولكن من الذي هداه إلى العمل؟ ومن الذي أعانه عليه؟ ومن الذي ستر تقصيره؟ ومن الذي قبله منه مع نقصه؟ ومن الذي ضاعف الحسنه، ومحا السيئة، وبلغه بما لا يساوي عمله المحدود نعيماً لا ينتهي؟ كل طريق النجاة محاط بالعطاء، ولذلك لا ينقلب أهل الجنة بعد نجاتهم إلى الإعجاب بأنفسهم، بل تزداد معرفتهم بفضل ربهم.

وتكرار كلمة ربهم في قوله: ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ يملأ المشهد بالقرب والرعاية. ربهم هو الذي أعطاهم، وربهم هو الذي وقَّاهم. جمع لهم حصول المحبوب والنجاة من المرهوب؛ فلم يكن النعيم كاملاً بالطعام والشراب والسرر وحدها، حتى انضم إليه اليقين الأبدي بأن العذاب لن يصل إليهم. وربما كان شعور الوقاية في أول دخول الجنة أعظم في القلب من كثير من صور النعيم؛ لأن الناجي الذي رأى النار يدرك معنى السلامة إدراكاً لا يدركه من لم يعرف الخطر.

كم من نعمة نعيشها في الدنيا ولا نعرف قدرها؛ لأننا نرى العطاء ولا نرى البلاء الذي صُرف عنا. نشكر أحياناً على ما دخل أيدينا، ولا نشكر على ما لم يدخل حياتنا من المصائب. غير أن الوقاية عطاء خفي، وقد تكون أوسع من العطاء الظاهر. وربما مريضك عادياً في نظرك، بينما أحاطتكَ فيه ألطاف لا تحصيها: حادث صُرف، ومرض دُفع، وقتنة أبعدت، وكلمة شر حُبست عنك، وخاطر معصية لم يتمكن من قلبك. وفي الجنة تتكشف قيمة الوقاية الكبرى: ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

ثم يأتي النداء الذي يحرر اللذة من كل خوف: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ما أوسع المسافة بين طعام الدنيا وطعام الآخرة! في الدنيا يأكل الإنسان وهو يخشى الضرر والتخمة والمرض، وقد يشتهي ما لا يقدر عليه، ويملك ما لا يستطيع تناوله، ويتذوق الشيء وقلبه مشغول بما بعده. أما هنا فكل شيء هنيء: لا أذى في الجسد، ولا قلق في الروح، ولا ندم بعد اللذة، ولا مرض يتولد منها، ولا نهاية تقطعها.

وكلمة هنيئاً لا تصف الطعام وحده، بل تصف حال النفس وهي تلتقاه. فقد يُقدَّم الطعام الفاخر إلى قلب مكدود فلا يهنأ به، وقد يجلس الإنسان إلى مائدة واسعة بينما تلتهمه خصومة أو خوف أو غياب حبيب. فالهناء ليس في الشيء وحده، وإنما في انسجام النعمة مع الروح. ولهذا كانت الجنة دار الهناء؛ لأن الله ينزع من الصدور كل ما يعكر النعمة، فلا يحمل أهلها جرحاً قديماً، ولا حسداً خفياً، ولا ذكرى تقطع سرورهم.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. قبل قليل قيل لأهل النار: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهنا يقال لأهل الجنة: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. العمل هو العمل من حيث كونه بذرةً للمصير، لكن الثمرتين تفترقان بقدر ما اختلفت الطرق. وفي هذه المقابلة عدل يملأ الوجود معنى: فلا تستوي يد امتدت إلى الظلم ويد ردت المظلمة، ولا عين بحثت عن الحرام وعين بكت من خشية الله، ولا لسان هدم أعراض الناس ولسان جبر قلوبهم، ولا عمر أهدر في الخوض وعمر حمل أمانة الإيمان.

ومع ذلك يبقى الفرق بين الجزاءين عظيماً: السيئة لا يُجزى عليها إلا بمثلها، أما الحسنة فيضاعفها الله، ثم يدخل عباده الجنة برحمته. فالعمل ليس ثمناً مكافئاً للأبد، إذ كيف تشتري سنوات محدودة نعيماً لا ينتهي؟ ولكنه علامة الصدق، وبذرة القبول، والطريق الذي أراد الله أن يسلكه العبد ليلبغ رحمته. ومن فهم هذا لم يحتقر العمل اعتماداً على الرحمة، ولم يعجب بعمله ناسياً الرحمة؛ بل عمل بقلب خائف راجٍ، يرى الطاعة من توفيق الله، ويرجو قبولها من فضل الله.

ثم ترسم السورة هيئة الراحة: ﴿مُتَكِّئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾. والاتكاء صورة استقرار بعد تعب، وطمأنينة بعد حذر، وأمن بعد طول ترقب. كان المؤمن في الدنيا لا يكاد ينتهي من امتحان حتى يبدأ غيره، يجاهد نفسه، ويحرس قلبه، ويقاوم ضغط الباطل، ويحمل هم أحبته، ويخشى الخاتمة. أما الآن فقد انتهى زمن التكليف، وحان زمن الجزاء. لا عدو يترصص، ولا نفس تأمر بالسوء، ولا شيطان يوسوس، ولا غد مجهول يثير القلق. لقد وصل المسافر، ووضع عن كتفيه تعب الطريق.

والسرر مصفوفة؛ ليست عزلة فردية يملك فيها كل واحد متعته بعيداً عن غيره، بل اجتماع منظم، ومجالس متقابلة، وأنس لا يفسده تنازع. ففي الدنيا كثيراً ما تنقص الجماعة سعادة الفرد؛ لأن القلوب تحمل الغيرة والمقارنة وسوء الظن، وقد يدخل المرء مجلساً جميلاً فتفسده كلمة، أو تفسد صفاء نظرة. أما هناك فقد طهرت القلوب، وصارت الجماعة زيادةً في النعيم. إن الجنة لا تشفي حاجة الجسد فحسب، بل تشفي حاجة الروح إلى صحة أمانة لا تخشى منها جرماً ولا خيانة ولا فراقاً.

﴿وَزَوْجَانَهُم يُحُورِينَ﴾. يكتمل الأنس بزواج مطهر من كل ما كان يعكر علاقات الدنيا. لا نفور، ولا خيانة، ولا صراع على السيادة، ولا انطفاء بمرور الزمن. إن جمال الجنة ليس جمال صورة تفتي، بل جمال خلق لا يذبل، وعلاقة لا يهددها الفقد. وكل ما في الدنيا من شوق إلى المحبة الكاملة كان ظلاً بعيداً لما أعده الله لعباده؛ لأن القلب يتطلع هنا إلى دوام لا تملكه الدنيا، ويحاول أن يستخرج الأبد من علاقات محكومة بالزوال، ثم يتألم حين يكتشف أن أحب الوجوه إليه لا تستطيع أن تعدّه بالبقاء.

غير أن السورة لا تلبث أن تذكر نعيماً من نوع آخر، قد يكون عند كثير من القلوب أبلغ أثراً من وصف السرر والثمار: نعيم اجتماع الأسرة المؤمنة في الجنة. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾. لأن الجنة لو كانت نجاةً فردية محضة، ل بقي في قلب الوالد المؤمن سؤال عن أبنائه، وبقي في تمام سروره موضع ناقص. والجنة دار لا نقص فيها، فيجمع الله شمل أهل الإيمان، ويرفع الذرية حتى يقرّها بها عيون آبائها.

ما أرحم الله حين يجعل من صلة الإيمان صلةً تتجاوز الموت! فالأسرة التي اجتمعت على طاعته في بيت صغير من بيوت الأرض، وصلت معاً، وتواصت بالحق، وصبرت على البلاء، وحفظت في زمن الفتن جذوة الإيمان، لا ينتهي تاريخها عند حفرة القبر. قد تنفرك أجسادها في مقابر متباعدة، وتباعد أعوام الرحيل، لكن الوعد يجمعها في دار لا يقع فيها فراق بعد ذلك. وما أجمل أن ينظر الأب إلى أولاده يومئذ فيرى أن خوفه الطويل

عليهم، ودعاه لهم في الأسفار، وتعليمه وصبره ومتابعته، لم تذهب أعمالاً عابرة، بل كانت تبني اجتماعاً أبدياً.

ومع ذلك قيّدت الآية الإلحاق بالإيمان: ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ﴾. فالنسب وحده لا يصنع النجاة. لا يستطيع صلاح الأب أن يتحول إلى إيمان في قلب الابن قهراً، ولا تكون الأسرة جسراً يعبر به من رفض طريق الله. إن الرحمة تجمع أهل الإيمان، لكنها لا تلغي مسؤولية الفرد. وهنا يتوازن الرجاء مع التكليف: يرجو الوالدان أن يجمع الله بهما ذريتهما، لكن عليهما أن يبنيا في أبنائهما الإيمان الذي يجعلهما أهلاً لهذا الجمع.

وليس بناء الإيمان في الذرية مجرد أوامر تلقى، بل مناخ كامل يراه الأبناء في البيت. إنهم يتعلمون صورة الله من الطريقة التي يتحدث بها الوالدان عنه، ويتعلمون معنى العبادة من أثر الصلاة في الأخلاق، ويتعلمون صدق القرآن حين يروونه ميزاناً يحتكم إليه لا زينة توضع على الرفوف. وقد يدعو الأب أبناءه إلى الله بلسانه، ثم يدفعهم عنه بسوء خلقه؛ لأن الطفل يقرأ السلوك قبل أن يفهم الموعظة. وأعظم ميراث يتركه الإنسان بعده ليس ما لا يختلف عليه الورثة، بل قلباً عرفه بالله، ودعاء صالحاً يستمر بعد انقطاع العمل.

﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾. في كلمة ألحقنا حركة رحمة تلغي المسافات. فالذرية لا تصعد إلى منزلة الآباء بقوة عمل يساوي أعمالهم، وإنما يرفعها الله إكراماً واجتماعاً، دون أن ينقص من أجور الآباء شيئاً: ﴿وَمَا أَتَيْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. لا ينزع من رصيد أحد لتستكمل به سعادة غيره، بل تتسع الخزائن للجميع. هذه ليست قسمة الدنيا التي إذا أعطت شخصاً نقص نصيب آخر، وإنما عطاء رب لا تنفذ خزائنه، يجمع الأسرة، ويرفع الدرجة، ويحفظ الأجر كاملاً.

وما أضيق تصوراتنا للكرم الإلهي حين نقيسه على موارد البشر! نحن نعرف عطاءً محدوداً، ولذلك نظن أن زيادة نصيب إنسان تستلزم نقص نصيب آخر. أما خزائن الله فلا يزاحم فيها طالب طالباً، ولا ينقصها أن يعطي الأولين والآخرين. وحين ندعوه لأحبتنا لا نطرق باباً يضيق بكثرة السائلين، بل باب الكريم الذي يحب أن يُسأل، ويملك أن يمنح كل واحد فوق ما يتصور دون أن ينقص من ملكه شيء.

ثم تأتي القاعدة التي تحفظ عدل المشهد: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ﴾. فالإلحاق رحمة، ولكنه لا يعني ذوبان المسؤولية الفردية. كل إنسان مرهون بكسبه، متعلق به، لا يفك رهنه نسب مجرد ولا انتساب لفظي. والآية تجمع في سياق واحد بين رحمة الأسرة وعدالة

الفرد؛ فلا قطيعة تنفي أثر الروابط، ولا محاباة تلغي أثر العمل. إن ميزان الله أدق من أن يظلم الفرد باسم الجماعة، وأرحم من أن يحرم الأسرة المؤمنة لذة الاجتماع.

وكون الإنسان رهيناً بما كسب صورة باللغة القوة؛ لأن العمل الذي ظنه لحظةً انقضت يصبح قيلاً يرافقه. قد ينتهي الفعل في ثوانٍ، لكن أثره لا ينتهي. كلمة ظلم يقولها المرء ثم ينساها قد تمسك بصاحبها يوم الحساب، وحق يأكله ثم يستهلكه يبقى ديناً في عنقه، وطاعة يعملها في خفاء قد تصبح مفتاحاً يفك رهنه. فنحن لا نغادر أفعالنا حين نفرغ منها؛ بل تأخذ أفعالنا مكانها في تكوين مصيرنا، ثم تنتظرنا.

بعد هذا المعنى العميق تعود السورة إلى صور النعيم: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾. والإمداد يوحي بالتجدد والاستمرار؛ فلا خوف من نفاد، ولا حاجة إلى ادخار، ولا قلق من الغد. في الدنيا يفسد الخوف من الفقد جزءاً من متعة الملك، فيحسب الإنسان ما بقي، ويقلق من انتهاء المورد، وربما أمسك ما في يده عن غيره لأن المستقبل مجهول. أما في الجنة فالعطاء يأتي متصلاً، والرغبة لا تقابل بالعجز، والنعمة لا تنقص بالاستهلاك.

﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾. في الجنة تلتقي القدرة بالرغبة دون المسافة التي أتعبت الإنسان في الدنيا. كم اشتى هنا ما لم يملكه، وكم ملك ما لم يعد يشتهيه، وكم حال المرض أو الفقر أو الزمن بينه وبين محبوبه! أما هناك فلا عجز يقطع الطريق بين الإرادة والنعمة. ومع ذلك فإن شهوات الجنة طاهرة، لا يترتب عليها فساد، ولا تعتدي على حق، ولا تترك في النفس خزيًا. لقد تطهرت الرغبة نفسها قبل أن تُلبى، فصار النعيم موافقاً لكامل الروح لا نزولاً بها.

ثم يصور القرآن مجلسهم: ﴿يَنَنَازِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾. يتعاطون الكأس بينهم في أنس ومودة، لكنها كأس منزهة عن آفات نحر الدنيا. لا تذهب بالعقل، ولا تُطلق اللسان بالسفه، ولا تفتح باب العدوان. فقد ارتبطت مجالس الشراب في الدنيا باللغو والإثم؛ كلام يندم عليه صاحبه، وكرامة تسقط، وعقل يعطل، وحقوق تُنتهك. أما في الجنة فنبقى اللذة وينزع منها الأذى؛ لأن الله لا يحرم عباده من الطيب، وإنما يحجمهم في الدنيا مما اختلط لذاذه بفساده، ثم يمنحهم في الآخرة النعيم نقيًا من الشوائب.

وفي قوله: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ وصف لمجتمع الجنة كله، لا للكأس وحدها. إنه عالم بلا كلمة جارحة، ولا تهمة، ولا غيبة، ولا سخرية، ولا حديث فارغ يستهلك العمر. تحيل مجلساً لا تحتاج فيه إلى أن تحرس قلبك من إشارة، ولا تخاف أن تُساء عبارتك، ولا تعود منه مثقلاً بما قيل في حقك أو حق غيرك. إن جزءاً كبيراً من تعب الدنيا جاءنا من الكلمات؛

من كلمة هَدَّمت ثقة، أو أوقدت حرباً، أو قطعت رحماً، أو أبقت جرحاً سنوات. وفي الجنة يُشْفَى اللسان كما يُشْفَى الجسد، فلا يخرج منه إلا ما يزيد الأنس صفاءً.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلَافٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُهُمْ مُكْنُونٌ﴾. الجمال هنا محفوظ مصون، كاللؤلؤ في صدفه لم تمسه يد ولم يذهب بريقه. والمشهد كله نظافة وإشراق وخدمة لا تعب فيها ولا مذلة. فالجنة لا تقدم للإنسان أشياء جميلةً فحسب، بل تضعه في نظام من الجمال يحيط به؛ جمال الوجوه، وجمال الخدمة، وجمال المجالس، وجمال الكلام، وجمال القلوب. إنها إعادة خلق للحياة من غير العناصر التي أفسدت جمالها الأول.

غير أن السورة، بعد الطعام والشراب والسرر واللؤلؤ، تنتقل إلى مشهد يكشف جوهر النعم الإنساني: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾. إنهم لم ينسوا رحلتهم. يجلس الناجون في أمانهم الأبدي، ثم يلتفت بعضهم إلى بعض يتذكرون زمن الخوف. والإقبال هنا إقبال جسد وقلب؛ فلا أحد منشغل عن صاحبه، ولا أحد يتصنع الاستماع، ولا قلق يقطع الحديث. لقد صار لهم وقت لا ينفد، وأمان يسمح للذاكرة أن تستعيد أيامها القديمة دون أن تتألم.

وما أجل أن الجنة لا تحو قصة الإنسان، بل تطهرها. يتذكر أهلها خوفهم فلا يعذبهم، بل يزيدهم معرفةً بالنعمة. يتذكرون الأيام الصعبة من موضع النجاة، فتتحول الآلام القديمة إلى أجزاء مضيئة من الحكاية. وكما يتذكر المسافر بعد وصوله ليلةً كاد يضل فيها الطريق، فيزداد فرحه بالوصول، يتذكر أهل الجنة مواطن الفتنة والصبر والدعاء، ويرون الآن كيف كان لطف الله يعمل في تفاصيل لم يفهموها يومئذ.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾. لم يقولوا: كنا من أصحاب الأعمال العظيمة، ولا: كنا واثقين من نجاتنا، ولا: كنا أفضل من غيرنا. أول ما ذكره حال القلب: كنا مشفقين. والإشفاق خوف ممزوج بعناية ورقة؛ ليس يأساً من الله، بل خوفاً يحمل صاحبه على الحذر والعمل. كانوا يعيشون بين أهلهم، في البيوت نفسها التي يعيش فيها غيرهم، ويأكلون ويضحكون ويعملون، لكن وراء المشهد الظاهر قلباً يستحضر الوقوف بين يدي الله.

﴿فِي أَهْلَانَا﴾. وهذه الفتنة تنقل التقوى من المساجد والخلوات إلى الحياة اليومية. كانوا مشفقين وهم بين أهلهم، حيث تسقط الأقنعة ويظهر الطبع الحقيقي. فقد يبدو الإنسان ورعاً أمام الناس، ثم يظلم زوجته أو يقسو على أبنائه أو يأكل كل حق أهله؛ لكن التقوى الصادقة تدخل البيت معه. إن أقرب الناس إلينا هم أصدق الشهود على أخلاقنا، ومن الخلل أن يتسع حلم الإنسان للغرباء ثم يضيق بأهل بيته، أو يزين كلامه للناس ثم يجعل بيته موضعاً لتفريغ غضبه.

وكانوا مشفقين في أهلهم أيضاً لأنهم يخافون عليهم، لا على أنفسهم وحدها. فالإيمان لا يهناً بنجاة فردية ويترك الأحبة للنار. القلب الذي ذاق معرفة الله يحمل هم أن يصل هذا النور إلى بيته، فيدعو ويربي ويصبر، ويعلم أن الاجتماع الحقيقي ليس أن يجتمعوا سنوات على مائدة الدنيا ثم يتفرقوا إلى الأبد، بل أن يقود بعضهم بعضاً إلى دار البقاء.

إن الإشفاق لم يحرمهم الفرح في الدنيا، لكنه منع الفرح من أن يتحول إلى غفلة. ولم يمنعهم من محبة أهلهم، لكنه طهر المحبة من الاكتفاء براحتهم العاجلة. فبعض الناس يحب ابنه بما يحفظ دنياه فقط: يحرص على تعليمه وصحته ومكانته، ثم لا يقلقه أن تضعف صلته بالله. وهذا حب قصير البصر، لأنه يهين الابن لعشرات السنين، ويغفل عن مصير لا ينتهي. أما الحب المؤمن فيريد للإنسان خير الدنيا، لكنه لا يبيع آخرته في سبيلها.

ثم يعترفون بمصدر النجاة: ﴿فَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾. ما أصفى هذا الاعتراف! لم يقولوا: فنجونا لأننا كنا مشفقين، بل نسبوا النجاة إلى منّة الله. نعم، كان إشفاقهم سبباً في العمل، لكن السبب نفسه توفيق، والثبات عليه توفيق، وقبوله توفيق. وكلما ازداد العبد معرفةً بالله قلّ إعجابه بنفسه؛ لأنه يرى يد النعمة وراء كل طاعة. إن الذي أيقظك من الغفلة كان الله، والذي حبّب إليك الإيمان كان الله، والذي صرف عنك فتنةً كادت بتبتلعك كان الله، والذي ستر عثرتك وفتح لك باب التوبة كان الله.

﴿وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾. والسوموم عذاب ينفذ بحجره، كما تنفذ الريح الحارة في المسام. إنهم لا يصفون الجنة أولاً بما وجدوه من لذة، بل يستحضرون ما وقوا منه. لأن معرفة النجاة تكتمل بمعرفة الخطر. ولعلهم حين رأوا النار أدركوا أن كل سجدة في الدنيا كانت نجاة، وكل دمة خشية كانت ماءً يطفئ طريقاً إلى اللهب، وكل معصية تركوها مع قدرتهم عليها كانت باباً من أبواب الوقاية.

ثم يكشفون السر الذي كان يربط أيامهم بعضها ببعض: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾. هنا نصل إلى قلب الحكاية. كانوا يدعونه. ربما لم تكن حياتهم ممتلئة بالأعمال التي يصفق لها الناس، لكن بينهم وبين الله باباً لا يغلق. كانوا يرفعون إليه ضعفهم، ويعترفون بفقرهم، ويسألونه الثبات والنجاة. وقد تبدل تفاصيل الأيام كلها، لكن الدعاء كان الخيط الذي يحفظ أرواحهم من السقوط.

لم يقولوا: دعونا مرة، بل جاء التعبير بما يدل على حال ممتدة: ﴿كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾. كانت لهم صحبة مع الدعاء قبل أن يروا الإجابة الكبرى. دعوه حين ضاقت بهم الدنيا، وحين أقبلت عليهم، وحين خافوا على قلوبهم، وحين أثقلتهم ذنوبهم، وحين عجزوا عن إصلاح من يحبون. وربما ظنوا في بعض اللحظات أن الدعاء تأخرت إجابته، ثم اكتشفوا في اللجنة أن كل دعاء صادق كان ينسج شيئاً من نجاتهم.

إن الدعاء ليس وسيلة للحصول على شيء من الله فحسب؛ إنه إعلان أن لا نجاة إلا بالله. حين تدعو فأنت تضع ضعفك في موضعه الصحيح، وتعترف بأن القوة لا تستقل عن ربها، وأن القلب لا يثبت بنفسه، وأنت لا تملك أن تهدي من تحب، ولا أن تضمن خاتمتك، ولا أن تدفع عنك الفتن إلا بإعانتته. ولذلك كان الدعاء من أعمق صور العبودية؛ لأنه يهدم في داخل الإنسان وثن الاكتفاء بالنفس.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾. هذه هي المعرفة التي خرجوا بها من رحلتهم. لم يقولوا: إنه القوي القادر فحسب، مع أن النجاة من أثر قدرته، بل قالوا: البر الرحيم. البر هو الواسع في إحسانه، اللطيف بعباده، الصادق في وعده، الذي يوصل إليهم الخير من طرق يعلمونها ومن طرق لا يعلمونها. والرحيم هو الذي وسعت رحمته ضعفهم، فتجاوز عن التقصير، وقبل اليسير، وضاعف العمل، وأتم عليهم النجاة.

وتقديم الضمير هو يملأ العبارة معنى الاختصاص واليقين: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾. هو الذي لم تخذلهم رحمته حين خذلهم قواهم، وهو الذي بقي حين غاب عنهم كل من كانوا يستندون إليه، وهو الذي سمع الدعوات التي لم يسمعها أحد، وفهم الآلام التي عجزت اللغة عن وصفها. عرفوه في الدنيا من وراء الحجب، ثم رأوا في الآخرة آثار بره كاملة تحيط بهم. ولعل هذه الآيات تمنح المؤمن تعريفاً جديداً للنجاح. النجاح ليس أن تعيش بلا خوف، بل أن يكون خوفك دليلاً يقودك إلى الله. وليس أن تعتمد على عملك، بل أن تعمل ثم ترى مئة الله فوق العمل. وليس أن تؤمن لأهلك دنيا مريحة فحسب، بل أن تحمل هم

اجتماعهم معك في الجنة. وليس أن تدعو حتى تحصل على كل ما تريد في صورتك التي تريدها، بل أن تبقى على باب الله حتى يصنع به بك ما هو خير لك مما طلبت.

إن أهل الجنة، وهم على السرر المصفوفة وبين الفاكهة والكأس واللؤلؤ، اختصروا قصة نجاتهم في ثلاث حقائق: كنا مشفقين، فنَّ الله علينا، وكنا ندعوه. خوف دفع إلى العمل، ومِنَّة منعت العجب، ودعاء أبقي القلب متصلاً بمصدر النجاة. وتلك هي المعادلة التي يحتاجها السائر إلى الله: قلب لا يأمن مكر الطريق، وروح لا تنسب الفضل إلى نفسها، ويد لا تكف عن طرق الباب.

وبعد أن أسمعنا السورة حديث الناجين، تعود إلى النبي ﷺ وهو لا يزال في مكة، محاطاً باتهامات المكذبين وسخريتهم. كأنها تقول له: هذه نهاية الطريق، وهؤلاء هم الذين استجابوا لك، سيجلسون يوماً في الجنة يتذكرون أيام الإشفاق والدعاء؛ فامض في التذكير ولا يصدنك ما يرمونك به. ومن هنا يأتي الأمر: ﴿فَذَكِّرْ﴾؛ فهمة النور أن يظل حاضراً ولو أغمض الناس أعينهم، ومهمة الرسول أن يبلغ ولو أحاطت به افتراءات الكاهن والمجنون والشاعر. لكن السورة ستفكك هذه الاتهامات واحداً واحداً، لا دفاعاً عن شخص النبي ﷺ وحده، بل كشفاً للاضطراب العميق في عقل يرفض الحق ثم يبحث له كل يوم عن تهمة جديدة.

حين يعجزون عن ردِّ الوحي فيحاولون تغيير اسمه

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّهُ
الْمُنُونُ ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرِيبِينَ﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فَلْيَاثُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿

بعد أن فتحت السورة نافذةً على الجنة، وأسمعنا كلام أهلها وهم يتذكرون أيام الخوف والدعاء، تعود إلى الأرض؛ إلى اللحظة التي لم ينته فيها الامتحان بعد، وإلى النبي ﷺ وهو يقف في وجه التكذيب حاملاً كلمة أثقل من الجبال. وتأتي العودة بكلمة واحدة تختصر وظيفة الرسالة: ﴿فَذَكِّرْ﴾. كأن جميع المشاهد السابقة - من موران السماء وسير الجبال، إلى دَعِّ المَكذِبِينَ إلى النار، إلى مجالس المتقين في النعيم - تتحول الآن إلى مادة للتذكير. لقد رأيت النهاية، فذكّرهم بها قبل أن يصلوا إليها؛ وسمعت اعتراف التاجين، فافتح للناس طريق النجاة ما دام باب العمل مفتوحاً.

والتذكير غير إنشاء المعرفة من العدم؛ إنه ييقظ لما دفنته الغفلة، وإزاحة للركام عن حقيقة تعرفها الفطرة ثم تحجبها الشهوة والعادة. فالرسول ﷺ لا يزرع في النفس البشرية معنى غريباً عن تكوينها، بل يخاطب فيها موضعاً يعرف ربه في العمق، وإن تراكت فوقه طبقات الإنكار. ولهذا لا يحتاج الحق دائماً إلى أن يُخلق في القلب، بل قد يحتاج إلى أن يُستدعى من أعماقه. إن كثيراً من الناس لا تنقصهم الإشارة إلى الله، وإنما تنقصهم الشجاعة للوقوف معها طويلاً؛ لأنهم إذا أصغوا إليها تبدلت حياتهم، وهم يريدون من الحقيقة أن تريحهم دون أن تغيرهم.

﴿فَذَكِّرْ﴾. لم يقل: فإن استجابوا فاستمر في تذكيرهم، ولم يربط أداء الرسالة بنتيجة عاجلة يراها الداعية. فالتذكير واجب لأنه حق، لا لأنه يضمن التصفيق والقبول. وقد تمر الكلمة الصادقة على القلب اليوم فلا يظهر لها أثر، ثم تستيقظ فيه بعد أعوام، حين تكسر محنة قشرة الغفلة أو تفتح لحظة صدق باباً كان مغلقاً. إن صاحب الرسالة لا يملك توقيت الإنبيات؛ عليه أن يضع البذرة في مكانها، أما تحولها في باطن الروح فسر من أسرار الهداية. وفي الأمر بالتذكير رحمة بالنبي ﷺ أيضاً؛ لأنه يعيد إليه مركز مهمته كلما حاول المكذبون جره إلى هوامش المعركة. كانوا يريدون أن ينشغل بالدفاع عن نفسه: أهو كاهن أم مجنون أم شاعر؟ وأن يتحول الوحي من خطاب للإنسان إلى ساحة تبرير لا تنتهي. فجاء الأمر

الإلهي ليقول له: لا تسمح لأسمائهم أن تغَيِّرَ وظيفتك؛ أنت مذكَّرٌ، فاستمر في التذكير. إن من وسائل الباطل أن ينقل حامل الحق من موقع البلاغ إلى موقع المتهم، وأن يستهلك طاقته في نفي الأوصاف التي يخترعها الخصوم، حتى يضع الموضوع الأصلي بين الردود.

﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾. تدخل نعمة ربك بين النفيين وبين قلب النبي ﷺ، فتجعل البراءة من اتهاماتهم أثراً من آثار النعمة. أنت لست كاهناً ولا مجنوناً بسبب ما أحاطك الله به من رعاية ووحى وعصمة وثبوت. لم يترك ربك نهياً للمجنون، ولم يجعل ما تحمله ظنون كاهن يخلط الحق بالباطل، بل أنعم عليك بالنبوة، وأنزل إليك كلاماً من عنده، وهياً قلبك لحمل أمانته.

وما أرق إضافة الرب إلى النبي ﷺ في هذا الموضع: ربك. فبينما يحاول القوم تجريد الرسول من مكانته، يردُّه القرآن إلى أرفع نسبة: أنت عبد ربك الذي يتولاك. قد يسمونك بما شاءوا، لكن أسماءهم لا تغير حقيقتك عند الله. وقد يعيش المؤمن أحياناً ألم المسافة بين الصورة التي يعرفها الله عنه والصورة التي يرسمها الناس له؛ يُساء فهمه، أو تُحَرَّفَ نيته، أو يُنسب إليه ما لم يقل. وهنا تعلمه الآية أن الاحتماء الأول ليس بإقناع كل لسان، وإنما بالثبات داخل علم الله: ما دمت على ما يرضيه، فلن تصنع أوصاف الآخرين حقيقتك.

لقد جمعوا في اتهاماتهم بين الكاهن والمجنون، وهما وصفان متناقضان في أصل الدلالة. فالكاهن عندهم صاحب قصد وحيلة وتركيب للكلام، أما المجنون ففاقد السيطرة والعقل. لكن الخصومة حين تتحول إلى إرادة إسقاط لا تبحث عن أساق التهمة؛ يكفيها أن تُلقي كلمات كثيرة حول الإنسان لعل واحدة منها تلتصق به. وهذا الاضطراب ليس ضعفاً عابراً في التعبير، بل دليل على أن القوم لم تكن لديهم حقيقة يقيمون عليها موقفهم، وإنما كانت لديهم نتيجة مسبقة: لا نريد أن نؤمن، ثم راحوا يبحثون عن أي تفسير يعفيهم من الإيمان.

ولو كان ما جاء به الرسول ﷺ من جنس الكهانة لوافق أهواءهم أكثر مما خالفها؛ فالكاهن ابن البيئة، يستخدم مخزونها من الأوهام، ويعيش على حاجة الناس إليه، ويبيعهم ما يريدون سماعه. أما القرآن فقد جاء يهدم سلطان الخرافة، وينزع عن الكهنة ادعاء معرفة الغيب، ويرد الإنسان إلى الله وحده. ولو كان جنوناً لما صنع هذا البناء المتماسك للعقيدة والأخلاق والتشريع، ولما واجه مجتمعاً كاملاً بحقيقة واحدة لا تبدل تحت الإغراء والتهديد. لكنهم لم يكونوا يدرسون الظاهرة ليعرفوها، بل كانوا يطلقون أسماءهم ليحجبوها.

وما زالت هذه الحيلة تتكرر كلما جاء الحق بما يزعم نظاماً مستقراً من المصالح. بدل أن يناقش الناس الفكرة، يعيدون تسمية حاملها: متشدد، حالم، مضطرب، رجعي، باحث عن شهرة. قد تكون بعض الأوصاف صحيحة في مواضع أخرى، لكن تحويلها إلى بديل عن مناقشة الحجة علامة على العجز. فليس كل وصف للمتكلم جواباً عن كلامه، وليس سقوط الإنسان - لو سقط - دليلاً على سقوط الحقيقة التي نطق بها. والعدل الفكري يقتضي أن يُوزن القول بدليله، لا بمقدار الحب أو الكراهية لقائله.

ثم ينتقلون إلى اسم آخر: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾. لقد سمعوا من القرآن جمالاً لا يملكون إنكاره، وسلطاناً على القلب لا يشبه كلامهم، فبدل أن يسألوا عن مصدر هذا التفرد، ألحقوه بالشعر. ولم يكن اتهامهم اعترافاً أدبياً بريئاً، بل محاولة لوضع الوحي داخل نوع يعرفونه ويستطيعون احتواءه. فإذا صار القرآن شعراً، أمكن أن يكون محمد ﷺ شاعراً يظهر فترة ثم يموت، ويبقى المجتمع القديم بعده كما كان. إنهم لا ينكرون الأثر، ولكنهم يريدون تفسيره تفسيراً يعفيهم من مدلوله الإلهي.

وهنا تظهر واحدة من أعمق وسائل النفس في الهرب: تصنيف الحقيقة بدل الاستجابة لها. حين تواجهنا كلمة تهزنا، نسارع أحياناً إلى وضعها في خانة مألوفة: هذا حماس، أو أدب، أو خطاب عاطفي، أو أثر نفسي. وبمجرد أن نسمي الشيء نشعر أننا فهمناه وسيطرنا عليه، مع أننا قد نكون فررنا من السؤال الذي يحمله. لقد قالوا: شاعر؛ حتى لا يقولوا: رسول. لأن كلمة شاعر تتيح لهم الإعجاب بالإيقاع دون طاعة الأمر، أما كلمة رسول فتضعهم فوراً أمام التكليف.

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾. لم يكتفوا برفض رسالته، بل علّقوا آمالهم على موته. ينتظرون أن تنقضي حياته فينقضي معها الوحي، وكأن الحق يستمد بقاءه من الجسد الذي يحمله. والمنون هو الموت بما يحمله من حوادث الدهر ومفاجآته، وهم يتخيلون أن الزمن سيؤدي عنهم المهمة التي عجزوا عن إنجازها بالجنة. لا حاجة إلى أن نجيبه؛ يكفي أن ننتظر موته، ثم ينتهي كل شيء.

إنها أمنية العاجز حين لا يستطيع إبطال الفكرة: ينتظر غياب صاحبها. لكنه لا يفهم أن الرسائل الصادقة قد تبدأ حياةً أوسع بعد موت حاملها، وأن الجسد الذي يرحل ليس وعاء الحقيقة الأخير. يموت الرسول ﷺ ويبقى القرآن، ويمضي الجيل الأول وتظل الكلمات التي تلقاها غصةً كأنها تنزل على قلب العالم الآن. لقد تربصوا به ريب المنون، ثم مات

المتريصون، وبقي اسمه يُذكر مع اسم الله في مشارق الأرض ومغاربها، وبقي الوحي يهدي قلوباً لم تكن قد خلقت حين خططوا لدفعه.

وليس هذا خاصاً بتاريخ النبوة؛ فكثير من أهل الباطل يراهنون على الزمن ليهزم الحق. يقولون: هذه موجة وتنتهي، وهذا الصوت سينسى، والناس ستعجب، والذاكرة ستضعف. وقد تنتهي أشخاص وأشكال، لكن الحقيقة التي تتصل بأصل الوجود لا تنتهي بانتهاء من نطق بها. إن الحق أقدم من حامله وأبقى منه، والداعية لا يمنحه الحياة بل يمنحه صوته في لحظة من لحظات التاريخ.

فيأتي الجواب قوياً خالياً من القلق: ﴿قُلْ تَرَبُّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾. لا ترجعهم أن يتخلوا عن انتظارهم، ولا تقلق من خطتهم، بل دعهم ينتظرون وانتظر أنت أيضاً. لكن الفارق أن انتظارهم متعلق بموت رجل، وانتظارك متعلق بحكم الله. هم يظنون أن الأيام تعمل لحسابهم، وأنت تعلم أن الزمان كله جندي في ملك ربك. سيأتي الموت، نعم، ولكنه لن يقرر وحده من المنتصر؛ لأن النصر ليس طول عمر الجسد، بل بلوغ الرسالة غايتها وثبات الحق بعد رحيل حامله.

إن كلمة ﴿تَرَبُّصُوا﴾ لا تخرج من انفعال بشري مجروح، بل من يقين يستند إلى الله. فالذي يعرف من بيده العاقبة لا ترعبه مواعيد الخصوم، ولا يضطر إلى أن يصنع انتصاره قبل أوانه. يستطيع أن ينتظر؛ لأن الانتظار تحت وعد الله ليس فراغاً، بل عبادة ثقة. وقد يضيق المؤمن حين يرى الباطل مستطيلاً، فيظن أن تأخر الحسم إهمال، مع أن الله يكتب في زمن الانتظار أشياء كثيرة: يمتحن القلوب، ويستنفذ حجج الظالمين، ويبيّن رجالاً، ويميز صفوفاً، ويهيئ للحقيقة لحظة ظهورها.

ثم تسأل السورة سؤالاً ساخراً من دعوى العقل التي كانوا يعتزون بها: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾. والأحلام هنا العقول. أهذه الاتهامات المتناقضة ثمرة عقولهم التي يزعمون رجاحتها؟ يأمرهم العقل حقاً أن يجمعوا في رجل واحد بين الكهانة والجنون والشعر والتقول، دون أن يقيموا برهاناً على واحد منها؟ إن العقل إذا تحرر من الهوى يقود إلى الاتساق، أما حين يصبح خادماً للرغبة فإنه لا يعود يبحث عن الحقيقة، بل يصنع الحجج لما تقرر مسبقاً.

والتعبير بـ تأمرهم يكشف انقلاب العلاقة؛ فالعقل الذي ينبغي أن يكون أداة للنظر صار عندهم سلطة مزعومة تأمرهم بهذا الباطل. وربما كانوا يفتخرون بأنهم أهل أحلام وعقول

وتجارب، فجاء القرآن يردُّ عليهم من داخل دعواهم: إن كانت هذه ثمرة عقولكم، فأبي عقل هو الذي يأمر بالتناقض والافتراء؟ العقل ليس مجرد قدرة على الحيلة أو تركيب الكلام، بل استعداد للخضوع للحق حين يظهر. وقد يكون الإنسان شديد الذكاء، واسع الثقافة، ثم يكون عقله في أعماق قضايا الوجود أسيراً لشهوة أو كبرياء.

إن القرآن لا يعادي العقل، بل يفضح تعطيله. وما أكثر ما يُنسب إلى العقل مما صنعه الهوى ثم استعان بالعقل ليزينه! قد يختار الإنسان النتيجة لأنها توافق مصلحته، ثم يستدعي من المعلومات ما يؤيدها، ويستبعد ما يهددها، وبعد ذلك يسمي انحيازه تفكيراً حراً. والحرية العقلية الحقيقية ليست أن ترفض كل ما فوقك، بل أن تتحرر من كل ما في داخلك مما يمنحك من رؤية الدليل.

لكن السورة لا تحصر التفسير في خلل النظر، فتنتقل إلى الجذر الأخلاقي: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾. هنا ينكشف السر. ليست أحلامهم هي التي قادتهم إلى هذه التهم، بل الطغيان. والطغيان مجاوزة الحد، أن يتضخم الإنسان في نفسه حتى يرفض أن يكون عبداً، ويعامل حريته المحدودة كأنها سيادة مطلقة. إنه لا يرفض البرهان لأن البرهان غامض، بل لأن قبوله سيعيده إلى حجمه الحقيقي.

الطاغي يريد إلهاً لا يأمره، أو ديناً لا يغيره، أو وحياً يمنحه الطمأنينة دون أن ينتزع منه السيادة على نفسه. فإذا جاء الرسول يقول: إن الله الأمر كله، شعر الطاغي أن القضية تهدد عرشه الداخلي. وقد لا يملك مُلكاً ولا جيشاً، لكنه يحمل طاغوتاً صغيراً في صدره، يريد أن تكون رغباته المرجع الأخير. ولهذا يمكن أن يوجد الطغيان في فرد ضعيف كما يوجد في حاكم متجبر، فجوهره رفض الحد الذي وضعه الله للإنسان.

والطغيان يفسد المعرفة؛ لأن من جاوز حد العبودية لن يرى الوحي في صورته الحقيقية. سيبدو له التكليف قيئاً، مع أنه تحرير من عبودية الشهوة؛ وسيبدو له الخضوع لله إلغاءً للذات، مع أنه رد للذات إلى معناها؛ وسيبدو له الرسول منافساً لسلطانه، مع أنه رحمة تنقذه من سلطان نفسه. إن القلب حين يطغى يعيد تسمية الأشياء بحسب أثرها على كبريائه، لا بحسب حقيقتها.

ثم تذكر السورة تهمةً أشد وضوحاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾؛ أي اختلقه محمد ﷺ ونسبه إلى الله. وهنا بلغ الاتهام غايته، فقد انتقلوا من القول إن مصدره غامض أو مضطرب إلى

دعوى الكذب المتعمد. ولكن السورة لا تدخل في تفصيل طويل لتثبت ما يعرفونه من أمانته؛ بل تضرب إلى الجذر مرة أخرى: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

هذه الجملة القصيرة تسحب الستار عن المسرح كله. ليس الأمر أنهم فحسوا القرآن فلم يجدوا عليه دليلاً، ولا أنهم عرفوا النبي ﷺ كذاباً، فقد عرفوا صدقه قبل الرسالة. المشكلة أن الإيمان نفسه غير مرغوب فيه؛ ومن لا يريد النتيجة سيظل يخترع اعتراضات مهما سقط اعتراضه السابق. ولو جاءت آية طلب غيرها، ولو بُيِّن له وجه الحق انتقل إلى شبهة جديدة؛ لأن المعركة ليست مع الدليل، بل مع الإرادة.

﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ما أوجع هذا التشخيص! إنه ينقل القضية من ازدحام الكلمات إلى فراغ القلب. قد يملأ المكذب المجالس بالنقاش، ويكتب الصفحات في الاعتراض، ويعرض موقفه في صورة بحث طويل، لكن وراء هذا البناء كله قرار بسيط: لا يريد أن يؤمن. وليس معنى ذلك أن كل سؤال دليل كفر أو أن الشكوك لا تستحق الجواب؛ فقد يسأل الإنسان طالباً للنور، ويشك لأنه يبحث عن يقين. وإنما الفارق في صدق الاتجاه: أيسأل ليفتح الباب، أم يسأل ليبقى الباب مغلقاً؟

السؤال الصادق يتواضع حين يجد الجواب، أما السؤال المراءوغ فيغير صورته كلها حوصراً. الأول يقود صاحبه إلى تحول، والثاني يستهلك الزمن دون أن يسمح للحقيقة أن تسمه. ولذلك يحتاج طالب الحق إلى أن يفتش قلبه بقدر ما يفتش أدلته: هل أنا مستعد لأن أتبع النتيجة إن خالفت هواي؟ هل أريد المعرفة فعلاً، أم أريد حجةً تمنحني راحة البقاء كما أنا؟

ثم يأتي التحدي الذي ينقلهم من الاتهام إلى ميدان الإثبات: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾. إذا كان القرآن كلام بشر كما يقولون، والبيئة يثبتهم، واللغة لغتهم، وبينهم الشعراء والخطباء، فلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ. لا يكفي أن يمنحوه اسماً بديلاً، عليهم أن يفسروا وجوده تفسيراً يقدر على إنتاج نظيره. إن الدعوى التي لا تستطيع أن تواجه الحقيقة في ميدانها تظل مجرد وسيلة للهرب.

والقرآن يسمى نفسه هنا حديثاً، لكن أي حديث! كلام يخاطب العقل والروح، وقيم التشريع والأخلاق، ويقص التاريخ بمنظور يكشف سننه، ويصف الغيب بسلطان الحاضر المشهود، ويصوغ من جماعة مستضعفة أمةً تحمل ميزاناً للعالم. ليس إعجازه زخرفةً لفظية منفصلة عن المعنى، بل وحدة لا يمكن تفكيكها: بيان يهز القلب، ومعنى يبني الإنسان، ونظم يحمل في كل موضع دقته، وأثر يتجدد مع اختلاف العصور.

لقد كان العرب يدركون أسرار لغتهم بالسليقة، ويعرفون الفارق بين الشعر والخطابة والكهانة وكلام الناس، ولهذا كان ارتباك أسمائهم اعترافاً خفياً بأنهم أمام شيء لا يستقر في نوع من أنواع كلامهم. لو كان شعراً لاستطاعوا أن يحددوا بحره ومسلكه، ولو كان كهانةً لعرفوا بتبعها وموضوعاتها، ولو كان اختلافاً بشرياً لظهرت فيه آثار صاحبه وحدود بيئته وتناقض التجربة الإنسانية. لكنه ظل خارج قدرتهم على الاحتواء، فتنقلوا بين الأسماء دون أن يبلغوا حقيقته.

والتحدي ليس استعراضاً للقوة، بل إقامة للحجة. إن الله لا يطلبهم بإيمان أعمى، وإنما يضع دعواهم أمام اختبارها: إن كنتم صادقين فأتوا بمثله. والصدق لا يثبت بارتفاع الصوت، بل بالقدرة على حمل تبعات القول. ومن أدب العقل ألا يكتفي بإسقاط تفسير لا يعجبه، بل يقدم تفسيراً أقدر على استيعاب الظاهرة. أما أن يقولوا: تقوله، ثم يعجزوا عن تفسير كيف خرج من بشر حديث لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، فذلك ليس علماً، بل فرار اتخذ هيئة التفسير.

وفي الآيات حركة متدرجة تكشف سقوط الموقف المعاند: بدأوا بوصف الرسول ﷺ بالكاهن والمجنون، ثم وصفوه بالشاعر، ثم راهنوا على موته، ثم زعموا أنه تقول القرآن. وكلها تغيرت التهمة ظهر أنها لم تكن نتيجة معرفة، بل أداة مؤقتة لرفض الإيمان. وفي المقابل ظل خطاب الوحي ثابتاً؛ لا يتغير بتغير أسمائهم، ولا يفقد ثقته تحت سيل افتراءاتهم. وهنا يتعلم حامل الحق أن كثرة الاتهامات لا تعني كثرة الأدلة، وأن اضطراب الخصم بين أوصاف متناقضة قد يكون شاهداً على قوة الحقيقة التي عجز عن مواجهتها.

لكن السورة لم تبلغ بعد ذروة محاجتها. فبعد أن تحدتهم أن يأتوا بحديث مثله، ستنتقل من سؤال مصدر القرآن إلى سؤال مصدر وجودهم هم. كانوا يقولون: محمد تقول هذا الكتاب؛ فتضعهم السورة أمام سؤال لا تملك فلسفة الإنكار جواباً عنه: ومن أوجدكم أنتم؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾. وهنا لن تعود القضية اتهام رجل، بل مواجهة الإنسان بأصل كيان، ولن يكون السؤال عن كلام يسمعه فقط، بل عن النفس التي تسمع، والسماء التي تظل، والأرض التي تحمل، والخزائن التي ترزق، والغيب الذي يجهلون. ستأخذهم السورة من هروب إلى هروب، وتسقط عنهم باباً بعد باب، حتى يقفوا أمام الحقيقة بلا مخبأ: إنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا العالم، ولا يملكون خزائن الله، ولا يصعدون إلى السماء، ولا يعلون الغيب؛ فمن أين جاءهم كل هذا الاستكبار على ربهم؟

حين يُحاصر الإنكارُ بأسئلة الوجود الكبرى

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۖ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۚ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ۖ أَمْ لَهُمْ سُلُوكٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ فَلَائِيَاتٌ مُسْتَمْعِهِمْ ۖ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ۖ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ۖ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ۖ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۖ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

تدخل السورة هنا واحداً من أشد مقاطع القرآن إحكاماً وقوة. فلا تصرخ في وجه المنكر، ولا تزدحم بعبارات مجردة، بل تضعه أمام سلسلة من الأسئلة القصيرة التي تهدم مخالبه واحداً بعد آخر. وكل سؤال يبدأ بـ أم، كأنه باب يُفتح أمام دعواه، ثم لا يلبث أن ينكشف وراء الفراغ. أم خلقوا بلا خالق؟ أم خلقوا أنفسهم؟ أم خلقوا السماوات والأرض؟ أم يملكون خزائن الرب؟ أم يسيطرون على الكون؟ أم صعدوا إلى السماء فجأؤوا بعلم منها؟ أم عندهم الغيب؟ أم لهم إله آخر؟ إنهم أمام حصار لا تصنعه القوة، بل تصنعه البداة حين تستعيد سلطانهما.

إن هذه الأسئلة لا تمنح المكذب مساحة ليهرب إلى التفاصيل الصغيرة؛ إنها تردّه إلى أصل وجوده. كان مشغولاً باتهام الرسول ﷺ، فجاء القرآن يسأله عن نفسه. قبل أن تبحث عن اسم آخر للوحي، أخبرنا: من أين جئت أنت؟ وقبل أن تزعم أن هذا الكلام اختلق، فبّر وجود اللسان الذي ينطق باتهامك، والعقل الذي يفكر فيه، والكون الذي أتاح لك لحظة الاعتراض. لقد حوّل المكذب النبي ﷺ إلى متهم، فردّ القرآن الإنسان نفسه إلى منصة السؤال.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾. سؤال واحد، لكنه يزلزل جميع محاولات الفرار. هل وجدوا من غير خالق؟ هل خرج الوجود من العدم المحض بلا إرادة ولا قدرة ولا علم؟ إن العدم ليس شيئاً حتى يمنح الوجود، ولا يملك خصائص ليصنع خصائص، ولا يحمل في فراغه سر الحياة والعقل والإرادة. فإذا قيل إن الإنسان خلق من غير شيء، كان معنى ذلك أن ما لا يملك وجوداً أعطى الوجود، وأن ما لا يملك علماً أنشأ عقلاً، وأن ما لا إرادة له أنبج مخلوقاً يريد ويختار، وهي كلمات يمكن للسان أن يرددّها، لكن العقل لا يستطيع أن يمنحها معنى متماسكاً.

وليس السؤال درساً فلسفياً بعيداً عن القلب. إنه يقف عند أول لحظة من حكايتك الشخصية: كنت غير موجود، ثم صرت موجوداً. لم تستأذن نفسك في المحيى، ولم تختار زمن ميلادك، ولا وطنك، ولا والديك، ولا ملامح وجهك، ولا تركيب جسدك. وجدت نفسك داخل الحياة بعدما اكتملت فيك آلاف العمليات التي لم تشرف على واحدة منها. كل خلية فيك تشهد أنك متلقٍ للوجود لا مانع له، وأنت وصلت إلى العالم محمولاً قبل أن تعرف كيف تحمل نفسك.

إن الإنسان يتصرف بعد أعوام قليلة من ولادته كأنه صاحب قديم في الوجود، وينسى أنه وافد لم يحمل معه شيئاً. يختلف على الملك، ويتجبر بالقوة، ويحتقر الضعفاء، كأن له يداً في صنع نفسه. ولو ظل واعياً بدهشة البداية، لبقى في قلبه تواضع لا تسمح له الدنيا أن يطغى. فما أعجب مخلوقاً لم يختار نبض قلبه الأول، ثم يريد أن يعيش كأن الأمر كله بيده!

ثم يغلق السؤال طريقاً ويفتح الآخر: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾. إن لم يُخلَقوا من غير شيء، أنخلَقوا أنفسهم؟ لكن الشيء قبل وجوده معدوم، والمعدوم لا يخلق. ولكي يخلق الإنسان نفسه يجب أن يكون موجوداً قبل نفسه، قادراً قبل أن توجد قدرته، عالماً بتكوينه قبل أن يوجد عقله؛ وهذا تناقض تسقط عنده الدعوى من داخلها. فلا هو جاء من غير سبب، ولا هو صنع نفسه. وما بين نفي الاحتمالين يسطع الجواب الذي تحاول النفس تجنبه: له خالق أوجده.

وقد يقرُّ الإنسان بلسانه أن الله خلقه، ثم يعيش في أعماقه كأنه خالق نفسه. يرى مواهبه ملكاً ذاتياً، وينسب نجاحه إلى قدرته وحدها، ويتعامل مع النعمة كأنها استحقاق أصيل. ولذا لا تكفي معرفة الخلق معلومة؛ لا بد أن تتحول إلى مقام عبودية. إذا كان الله قد خلق عقلك، فليس من العدل أن تستخدمه في إنكاره. وإذا خلق لسانك، فليس من الوفاء أن تجعله أداةً لمحاربة وحيه. وإذا أعطاك القدرة، فليس من الحكمة أن تتخذ من عطيته وسيلةً للخروج عن أمره.

والخلق ليس واقعة انتهت في الماضي ثم انفصل الخالق عن مخلوقه؛ بل افتقار متجدد في كل لحظة. إنك تحتاج إلى الله في بقاءك كما احتجت إليه في بدايتك. لست ساعةً صنعها صانعها ثم تركها تعمل بقوتها؛ فقلبك لا يملك نبضته التالية، وروحك لا تضمن بقاءها إلى آخر الجملة التي تقرأها، وخلاياك تلتقي شروط استمرارها في كل آن. والمخلوق لا يتحرر من فقره بمرور الزمن؛ قد ينساه فقط.

ثم تتسع الدائرة من الإنسان إلى الكون: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. ربما عجزوا عن ادعاء خلق أنفسهم، فهل لهم يد في خلق المسرح الهائل الذي يعيشون فيه؟ أرفعوا السماء، ومدوا الأرض، وأجروا الأنهار، وحددوا مواقع النجوم، وأقاموا نظام الليل والنهار؟ إن وجودهم الصغير داخل هذا الاتساع ليس شهادة قوة، بل شهادة احتياج. جاءوا إلى بيت معدّ قبلهم: الهواء صالح لتنفسهم، والماء مهياً لحياتهم، والأرض تحمل أقواتهم، والسماء تمدّهم بالنور والدفع. لم يصنعوا الشروط التي تسمح لهم بأن يوجدوا؛ وجدوها تنتظرهم.

وكلّما اتسعت معرفة الإنسان بالكون، اتسعت أمامه مساحة العجز. لم تعد السماء في وعيه قبةً قريبة، بل فضاءات لا تكاد الأعداد تستوعب مقاييسها، ومع ذلك يظل بعض الناس يستخدمون اتساع الكون حجةً على الغفلة عن خالقه، بدل أن يكون مرآةً لعظمته. كأن اكتشاف دقة الصنعة أغناهم عن الصانع، مع أن كل مستوى جديد من النظام يضيف إلى السؤال عمقاً: من أين جاء هذا القانون؟ ومن منح المادة قابليتها للانتظام؟ ومن أقام التناسب الذي سمح للحياة أن تظهر؟

غير أن السورة لا تقول بعد السؤال: بل لا يعلمون، بل تقول: ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾. المشكلة ليست دائماً غياب المعلومة، بل غياب اليقين. قد يملك الإنسان من المعلومات عن الكون ما لم تملكه أجيال سابقة، ثم يكون نصيبه من الهداية أقل، لأن المعرفة لم تعبر من العقل إلى القلب. يرى النظام ولا يرى المدير، ويحلل البنية ولا يسمع دلالتها، ويعرف كيف تتحرك الأشياء لكنه يتجنب السؤال عن سبب وجودها وغايتها.

اليقين ليس كثرة البراهين وحدها، بل استقرار الحقيقة في النفس حتى تعيد تشكيل نظرتها وسلوكها. قد يقول المرء: أنا مؤمن بأن الله رازق، ثم يذل نفسه من أجل رزق، أو يبيع مبدأه خوفاً من الفقر؛ فمعلوماته صحيحة، لكن يقينه ضعيف. ويقول: الله يراني، ثم يجرؤ على معصيته في الخلوة؛ فالعبارة حاضرة، لكن أثرها غائب. إن المسافة بين العلم واليقين هي المسافة بين أن تعرف أن النار تحرق، وأن تقترب منها فيتحرك جسدك كله مبتعداً.

﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾. كأن السورة تقول إن دلائل الخلق تحيط بهم، لكنهم لم يسمحوا لها أن تستقر في داخلهم. فاليقين يحتاج إلى قلب ينصت، لا إلى عقل يجمع الأدلة ثم يحبسها في مساحة التجريد. ولو أيقن الإنسان أنه مخلوق، لما خاصم أمر خالقه كأنه ند له؛ ولو أيقن أن السماوات والأرض ملك الله، لما ظن أن بقعته الصغيرة في الدنيا تمنحه استقلالاً عن سلطان ربها.

ثم تنتقل السورة من سؤال الخلق إلى سؤال الملك: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾. ربما لم يخلقوا، لكن أديهم خزائن الرزق والرحمة والنبوة، يفتحونها لمن شاءوا ويغلقونها عن شاءوا؟ أكان اعتراضهم على رسالة محمد ﷺ قائماً على أنهم يملكون خزائن الله ويعرفون من يستحق عطايها؟ لقد استكثروا أن ينزل الوحي على رجل لم يخضع لمقاييس جاههم، كأن النبوة منصب تمنحه طبقتهم، أو ثروة توزعها زعاماتهم.

إن خزائن الله ليست عند الناس، ولذلك لا يملكون أن يحجبوا فضله عن أحب. قد تغلق الأرض أبوابها في وجه عبد، وتقرر القوى من حوله أنه لا يستحق الظهور، ثم يفتح الله له من خزائنه طريقاً لم يدخل في حساب أحد. وقد يجتمع الناس على رفع إنسان، ثم لا يكتب الله لرفعهم بقاءً. فما دام المفتاح عند الله، فلا تملك الأيدي كلها أن تمنع ما فتح، ولا أن تفتح ما أمسك.

وفي إضافة الخزائن إلى ربك تثبيت جديد للنبي ﷺ. إنهم يعترضون على ما آتاك، لكن خزائن النبوة والهداية ليست عندهم. ربك هو الذي اختارك، وهو أعلم حيث يجعل رسالته. وما كان عطاء الله محتاجاً إلى تصديقهم حتى يصير عطاءً، ولا كانت منزلتك عنده متوقفةً على اعترافهم بها. ومن عرف أن خزائن ربه لا خزائن الناس هي مصدر العطاء، تحرر من عبودية الأبواب البشرية. يأخذ بالأسباب ولا يركع لها، ويعامل الخلق بأدب دون أن يهبطهم المقام الذي لا يليق إلا بالخالق.

وكم يتعب الإنسان حين يتوهم أن رزقه في خزانة شخص! يراقب رضاه، ويخشى غضبه، ويقدم له ما لا يجوز أن يقدمه إلا لله. ولو استقر في قلبه أن البشر موزعون لا مالكون، وأن ما في أيديهم وصل إليهم أولاً من خزائن الله، لأحسن التعامل معهم دون أن يستعبده. إن التوحيد لا يعزل الإنسان عن الأسباب، لكنه يحرر قلبه من الانكسار لها.

ثم تصعد الآية السؤال: ﴿أَمْ هُمُ الْمُضَيَّطُونَ﴾. أليس الأمر أن عندهم بعض الخزائن فقط، بل أهم المسيطرون على الكون كله؟ أيمكن توزيع الأقدار، وتحديد المصائر، ومنح النبوة، وحبس الرحمة؟ إن السيطرة التي يتوهمها الإنسان من أكثر أوهاام الدنيا رسوخاً. يملك مساحة صغيرة فيتوهم أنه ملك نتائجها، ويصدر أمراً فينفذه الناس فيحسب أن الأشياء كلها خاضعة له. لكنه لا يستطيع أن يمنع مرضاً من جسده، ولا أن يأمر النوم فيأتي حين يشاء، ولا أن يضمن للذين يطيعونه بقاءهم حوله.

والقرآن يجرد الطغيان من مظهره المهيّب بسؤال: ﴿أَمْ هُمُ الْمُصِطْرُونَ﴾. فالجواب واضح قبل أن يُقال. لو كانوا مسيطرين، لما خافوا الموت الذي كانوا يتربصون أن يصيب النبي ﷺ؛ لأن الموت يتربص بهم أيضاً. ولو كانوا مسيطرين، لما احتاجوا إلى طعام أو ماء، ولا داهتهم الشيخوخة، ولا أخذتهم السنة والنوم. إن أبسط حاجات الجسد تكسر ادعاء السيادة المطلقة. الملك يحتاج إلى خادمه، والقوي يحتاج إلى الهواء، والغني يحتاج إلى نبضة لا يستطيع شراءها إذا جاء أجلها.

والعجيب أن الإنسان قد يعترف بعجزه في آلاف التفاصيل، ثم يحتفظ في أعماقه بإحساس السيطرة. يضع الخطط الضرورية، ثم يتحول التخطيط من سبب مأمور به إلى وهم يمنحه طمأنينة الاستقلال. فإذا وقع خلاف ما رسمه، انهار كأن الكون خرج عن نظامه، مع أن الذي انهار هو تصوّره عن نفسه. والعبودية المتوازنة تخطط، لكنها تكتب في قلبها قبل الورق: إن شاء الله؛ لا كلمة تقال باللسان فقط، بل وعياً بأن الخطة تجري داخل مشيئة أكبر.

بعد خزائن الأرض وسلطانها، تصعد السورة بهم إلى السماء: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يُسْتَمْعُونَ فِيهِ﴾. ألهم طريق خاص يرتقون به إلى الملاء الأعلى، فيسمعون الحقيقة من مصدرها، ثم يعودون ليعارضوا بها الوحي؟ هل بنوا سلماً يتجاوز حدود البشر، فاكتمسبوا علماً يثبت أن محمداً ﷺ ليس رسولاً؟ إنهم يتكلمون بثقة من يملك خبر السماء، مع أنهم لم يتجاوزوا حدود ظنونهم.

وتحمل صورة السلم سخريّة من ضخامة الدعوى وضآلة مستندها. إنهم على الأرض، محدودون بحواسهم، ثم يصدرّون أحكاماً جازمة على ما يجوز لله وما لا يجوز، ومن يختاره للرسالة ومن لا يختاره. كأنهم صعدوا فسمعوا قرار السماء! وهذه آفة تكرر في الإنسان حين يحوّل جهله إلى حكم. بدل أن يقول: لا أعلم، يقول: لا يمكن. وبدل أن يعترف بحدود تجربته، يجعل تجربته حداً للوجود كله.

﴿فَلْيَايَاتٍ مُّسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾. إن كان بينهم من استمع حقاً، فلآيات بحجة واضحة. فالادعاء لا يتحول إلى معرفة بمجرد الثقة التي يقال بها، ولا يصبح الظن وحياً لأن جماعة اتفقت عليه. والسلطان المبين هو الحجّة التي تملك قوة إظهار الحق، لا الانطباع الشخصي، ولا الموروث الذي لم يُفحص، ولا السخريّة التي تستبدل البرهان بالضحك.

إن القرآن يريّ العقل على أخلاق الدليل. لا يكفي أن تقول؛ عليك أن تقيم سلطان قولك. ولا يكفي أن يشتهر الرأي؛ فالشهرة ليست برهاناً. ولا يكفي أن ترث الفكرة؛ فالقدم لا يمنح الباطل حقاً. بهذا الميزان يحرق الوحي الإنسان من استبداد الجماعة، كما يحرقه من استبداد الفرد. إن الحقيقة لا تُوزن بعدد القائلين بها وحده، بل بما تقوم عليه من حجة.

ثم تكشف السورة تناقضاً في تصورهم عن الله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبُنُونَ﴾. كانوا ينسبون الملائكة إلى الله على أنهم بناته، ثم يكرهون البنات لأنفسهم ويفتخرون بالبنين. وليس المقصود هنا تقرير المفاضلة الجاهلية، بل إلزامهم بتناقضهم: كيف تنسبون إلى الله - تعالى عن الولد كله - ما تستنكرون أن تنسبوه إلى أنفسكم؟ وأي عقل يختار لنفسه في زعمه النصيب الأفضل، ثم يجعل لله ما يعده أدنى؟

هذا الشرك لا يقوم على دليل، بل على تركيب من الوهم والهوى والتناقض. نسبوا لله الولد، وهو الغني عن العالمين، ثم اختاروا له بحسب مقياسهم ما يكرهونه. إنهم لم يعرفوا الله، وإنما صنعوا تصوراً يحمل عيوب نفوسهم ونظامهم الاجتماعي، ثم عبدوه. وهنا يظهر خطر أن يتحدث الإنسان عن الله من غير وحي؛ فإنه لا يصل غالباً إلى الله، بل يكرّر صورته البشرية ثم يسميها إلهاً.

والله سبحانه منزه عن الولد؛ لأن الولد حاجة المخلوق: يمتد به نسبه، ويستعين به على ضعفه، ويحفظ به اسمه بعد موته. أما الله فهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، الحي الذي لا يموت، الغني الذي لا يفتقر. فنسبة الولد إليه ليست تعظيماً، بل إسقاطاً لخصائص النقص البشري على مقام الكمال الإلهي.

ثم تسأل السورة عن احتمال آخر قد يفسر نفورهم: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾. هل طلبت منهم مالاً مقابل الرسالة، حتى صار الإيمان ديناً يثقل كواهلهم؟ هل جعلت الهداية سلعة لا يحصلون عليها إلا بثمن؟ إن الرسول ﷺ يقدم لهم أعظم ما يحتاجون إليه، ولا يسألهم عليه أجراً. فلماذا يفرون كأن الدعوة جاءت لتنهب أموالهم؟

إن غياب المصلحة الشخصية من أقوى الشواهد على صدق حامل الرسالة. لقد كان في وسع النبي ﷺ، لو أراد الدنيا، أن يساوم قومه؛ وقد عرضوا عليه ما يشتهي طالب المال والملك، لكنه بقي على كلمة واحدة. لم يكن يبني لنفسه ثروة، بل كان يحمل للناس نجاتاً قد يدفع حياته ثمناً لها. ومع ذلك عاملوه كأنهم أصحاب فضل عليه، مع أنه لا يطلب منهم إلا ما يعود نفعه إليهم.

وفي الآية تربية لحملة الدعوة: كلما خف نصيب النفس من البلاغ، صفا أثر الكلمة. فإذا شعر الناس أن الداعية يجعلهم سلباً إلى جاهه، اختلط عليهم وجه الحق بوجه المصلحة. وليس معنى ذلك أن العامل في الخير لا يأخذ حقاً مشروعاً، وإنما الخطر أن يصبح الدين وسيلة لا غاية، وأن يتغير القول بحسب ما يفتح من أبواب الدنيا أو يغلق.

﴿فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾. صورة إنسان يحمل على ظهره ديناً فادحاً، ويتحرك تحت ثقله. لكنهم لم يدفعوا شيئاً، ولم يطلب منهم الرسول مالاً. إن الذي أثقلهم لم يكن الأجر، بل التكليف. بدت لهم كلمة التوحيد ثقيلةً لأنها تطالبهم أن يضعوا كبرياءهم، وأن يسووا بين الناس أمام الله، وأن يردوا الحقوق، وأن يقطعوا صلاتهم بالأوثان التي تحمي نظام مصالحهم. قد تكون الحقيقة مجانية من جهة المال، لكنها مكلفة من جهة التحول؛ ومن لا يريد أن يتغير يعاملها كأنها أغلى ما طُلب منه.

ثم يسألهم: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾. هل فُتح لهم الغيب حتى يسجلوا ما فيه بثقة؟ هل علموا أن لا بعث، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار؟ إن إنكارهم للآخرة ليس قائماً على معاينة الغيب، بل هو دعوى عن شيء لم يحيطوا به علماً. ومع ذلك يتحدثون بلهجة من يكتب الحقائق من مصدرها.

وكلمة يكتبون تحمل معنى الإثبات والقطع؛ كأن عندهم سجل الغيب ينقلون عنه أحكامهم. لكن الإنسان الذي لا يعرف ما يقع له غداً، كيف يزعم الإحاطة بما وراء الموت؟ والذي قد يفاجئه نبأ قريب لم يخطر له، كيف يجعل حدود معرفته معياراً للحقيقة كلها؟ إن التواضع المعرفي كان ينبغي أن يقوده إلى الإنصات للوحي، لا إلى إنكار ما لم تدركه حواسه.

والغيب لا يبطله غيابه عن الحواس؛ بجزء كبير من وجود الإنسان نفسه كان غيباً عنه ثم صار شهادة. الغد غيب، وما في قلوب الناس غيب، وكثير من قوى الكون لم تكن مرئية قبل أن تُعرف آثارها. فليس كل ما لا تراه العين معدوماً، وإلا صار مدى البصر حدّاً للحقيقة. إنما السؤال الصحيح: هل جاءنا عن الغيب خبر ممن يعلم الغيب؟ وهنا تقوم النبوة لتصل المحدود بالعلم، والأرض بالسماء، والزمن القصير بالمصير الأبدى.

ثم تسقط السورة القناع الفكري، وتظهر الإرادة العدوانية: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾. بعد كل التهم والأسئلة، قد لا يكون مرادهم معرفة الحقيقة أصلاً، بل الكيد للرسول ﷺ وإبطال

دعوته. والكيد تدبير خفي لإيقاع الضرر. إنه ليس خلافاً نظرياً هادئاً، بل تخطيط لإطفاء النور بعدما عجزوا عن رد حجته.

حين يفشل الباطل في هزيمة الفكرة، ينتقل إلى محاصرة حاملها. يشوّه سمعته، ويفرق عنه أنصاره، ويهدده، ويخطط لإسكاته. يظن أن الحقيقة تموت إذا انقطع الصوت الذي ينطق بها. لكن السورة تقلب اتجاه الكيد كله في جملة خاطفة: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾. لم تقل فقط إن كيدهم سيفشل، بل جعلتهم هم المحاطين بالكيد. يحفرون الحفرة بأيديهم، ثم يسرون إليها وهم يظنون أنهم يحسنون التدبير.

إن باءت خططهم أحياناً بنجاح قريب، فذلك لا يعني أنهم خرجوا من سلطان الله. قد يضيّقون على المؤمن، أو يسجنونه، أو يقتلونه، لكنهم لا يملكون كتابة النهاية. قرب سجن صنع من صاحبه رمزاً، ورب دم أراقوه فسقى الفكرة التي أرادوا قتلها، ورب نصر عاجل حمل في داخله بذور سقوطهم. إن الله لا يمنع كل أثر لكيدهم فوراً؛ لكنه يجعله جزءاً من قدر أكبر يعود عليهم بما لم يحتسبوا.

وفي قوله: ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ طمأنينة لكل صاحب حق حاصرتها انخطط. ليس مطلوباً منه أن يعرف كيف سيرد الله الكيد، ولا متى تظهر النتيجة. يكفي أن يعرف أن كيد البشر يجري داخل ملك الله، وأن الذي يرى مقدماته يرى نهاياته. ليس معنى ذلك ترك الحذر والأسباب، بل ألا يتحول الحذر إلى هلع، ولا معرفة قوة الخصم إلى نسيان قوة الرب.

وبعد أن مرّت السورة على الخلق والكون والخزائن والسيطرة والسماء والغيب والكيد، تصل إلى السؤال الذي يجمع القضية كلها: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾. أهنالك إله آخر خلقهم، أو رزقهم، أو يملك مصيرهم، أو يمنعهم من حكم الله؟ إن كل موقفهم يحتاج، في النهاية، إلى قوة يستند إليها خارج سلطان الله. فإذا لم يكن لهم إله غيره، فمن أين جاءهم الاطمئنان إلى العصيان؟ وبأي قوة يتحدون أمره؟ وإلى من يهربون منه؟

هذا السؤال لا يطلب جواباً لفظياً فقط، فكثيرون يقولون: لا إله إلا الله، ثم يوزعون خصائص العبودية بين آلهة خفية. قد لا يسجدون لصنم حجري، لكنهم يخافون بشراً تخوف الله، أو يطلبون رضا المجتمع ولو أنخط الله، أو يجعلون أهواءهم مصدر التحليل والتحرير، أو يرون المال ضامناً نهائياً للأمان. والإله في حياة الإنسان هو ما يمنحه الطاعة العليا والثقة النهائية والخوف الذي يحكم بقية مخاوفه.

إن التوحيد ليس مجرد نفي عدد من المعبودات، بل جمع القلب على الله. أن تعلم أنه لا خالق غيره، فلا تنسب وجودك إلى العدم؛ ولا رازق غيره، فلا تذلل للأسباب؛ ولا مسيطر غيره، فلا ترتعد أمام طغيان البشر؛ ولا عالم بالغيب غيره، فلا تطلب اليقين من الظنون؛ ولا مدبر غيره، فلا تظن أن كيد أعدائه خرج عن حكمه. لقد كانت الأسئلة المتتابعة تفصيلاً لمعنى واحد، ثم جاء السؤال الأخير ليجمعه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾.

ويأتي الجواب تسبيحاً لا جدلاً: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. سبحانه؛ تنزهه وتعالى عن كل صورة صنعها الوهم، وكل شريك ألحقه الجهل بملكه، وكل نقص أسقطه البشر على كماله. ولم يقل السياق: لا إله لهم غير الله، مع أن هذا هو الحق، بل انتقل إلى التسبيح؛ لأن بعض الدعاوى من السقوط بحيث لا يكفي في مقابلها النفي، وإنما يليق بمقام الله أن يُنزه عنها.

والتسبيح هنا نهاية عقلية وروحية للمحاجة. فالعقل الصادق حين يقطع طريق الأسئلة يصل إلى التوحيد، والقلب الحي حين يصل إلى التوحيد يسبح. المعرفة الصحيحة لا تترك الإنسان بارداً أمام جلال الله، بل تحوله من متفرج على البرهان إلى عابد. وحين ترى أن الله خلقك وخلق السماوات والأرض، وأن خزائنه وحده، والسيطرة له، والغيب عنده، وكيد أعدائه داخل تديره، فلن تبقى عبارة سبحانه الله كلمةً تتحرك على اللسان؛ ستصبح حركة الروح كلها وهي تتبرأ من الأوهام وتعود إلى ربها.

هذه الأسئلة ليست أثراً من معركة قديمة انتهت، بل هي قائمة عند باب كل إنسان. أم خلقت من غير شيء؟ أم خلقت نفسك؟ أم تملك خزائن رزقك؟ أم أنت المسيطر على غذك؟ أم عندك الغيب فتكتب؟ أم لك إله غير الله يحجيك من الموت والحساب؟ وكلما أجبت بصدق، سقط شيء من غرورك، وولد فيك مقدار جديد من العبودية.

لكن المكذب قد يبلغ من العناد أن يرى الدليل نازلاً من السماء ثم يعيد تسميته حتى لا يستجيب. وهذا ما استكشفه السورة في مشهدها التالي: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾. فالتحليل ليس دائماً فيما يقع أمام العين، بل قد يكون في العين الباطنة التي قررت مسبقاً ألا ترى. وإذا بلغ الإنكار هذه الدرجة، لم يعد ينقصه دليل جديد، وإنما ينتظره اليوم الذي تنتهي فيه حرية إعادة تسمية الحقائق، ويصير العذاب الذي أنكروه واقعاً لا دافع له.

حين لا تعود المعجزة نافعة لقلب قرر ألا يرى

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ۚ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۚ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۚ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

بعد أن حاصرت السورة المكذبين بأسئلتها الكبرى، وأسقطت احتمالاً بعد احتمال، تكشف أن الأزمة لم تكن نقصاً في البرهان أصلاً. فحتى لو رأوا جزءاً من السماء ساقطاً فوقهم، لم يقولوا: هذه الآية التي طلبناها، ولم يفتحوا قلوبهم لاحتمال أن يكون الرسول ﷺ صادقاً؛ بل سيعيدون تسمية المشهد فوراً: ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾. لقد استقر القرار في الداخل قبل مجيء الدليل، وصارت العين لا ترى ما يقع أمامها، بل ترى التفسير الذي يحمي قرار القلب.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾. إنهم يرونه بأعينهم؛ فلا المشكلة في خفاء المشهد، ولا في ضعف الحاسة، ولا في غياب الآية. السماء نفسها تتشقق، وقطعة منها تسقط، ومع ذلك لا تعبر الرؤية من العين إلى موضع الاعتراف. وهنا يعلن القرآن أن الرؤية البصرية لا تضمن البصيرة؛ فقد تكون الحقيقة أمام الوجه، لكن الإنسان يضع بينها وبين قلبه اسماً مضللاً، ثم يطمئن إلى الاسم أكثر مما يطمئن إلى ما رأى.

لقد طالب المكذبون مراراً بآيات حسية، كأن مشكلتهم ستنتهي إذا خرج البرهان من مجال الكلمة إلى مجال المشاهدة. لكن السورة تكشف أن من استطاع أن يتخلص من دلالة هذا الكون كله لن تعجزه حيلة للتخلص من دلالة مشهد جديد. فالذي يرى السماء المرفوعة ولا يسأل من رفعها، ويرى نفسه موجوداً ولا يسأل من خلقه، ويرى نظام الحياة ولا يستدل به على المدبر، يستطيع أن يرى كسفاً من السماء ثم يقول: سحاب. ليست المشكلة في عدد الآيات، بل في المنهج الذي يستقبلها.

إن القلب إذا صدق قد تهديه إشارة صغيرة، وإذا عاند لم تكفه السماوات كلها. يرى الصادق أثر الحكمة في ورقة، أو معنى الرحمة في نجاة، أو حقيقة الضعف في مرض، فيعود إلى الله. أما المعاند فقد تقوم أمامه الشواهد من كل جانب، ثم يشتغل بتغيير أسمائها. ولهذا لم يكن الإيمان ثمرة الذكاء وحده، بل ثمرة الصدق كذلك؛ لأن الذكاء يستطيع أن يخدم الحقيقة، ويستطيع أيضاً أن يبني حول الهوى متاريس أكثر تعقيداً.

﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾. والمركوم هو المتراكم بعضه فوق بعض. إنهم لم ينكروا وقوع شيء في السماء، لكنهم أعادوا تأويله بما يسلبه دلالته. وهذه وسيلة أخطر من الإنكار الصريح؛ لأن صاحبها يبدو كأنه يفسر الواقع، بينما هو يفرغه من رسالته. وقد يرسل الله إلى الإنسان تنبيهاً يهز حياته، فيسارع إلى إدخاله ضمن المعتاد حتى لا يغيّر شيئاً: مرض شديد يسميه عارضاً وبمضي، ونجاة مدهشة يردّها إلى المصادفة، وموعظة وافقت جرحه فيقول: مجرد تأثر، وانكشف لحقيقة نفسه فيغطيه بالانشغال.

وليس المطلوب أن يحوّل المؤمن كل حادثة إلى دعوى غيبية لا دليل عليها، أو أن يهجر سنن الأسباب؛ فالقرآن نفسه يدعونا إلى النظر في السنن. ولكن الخطر أن تتحول الأسباب إلى ستار كثيف يحجب المسبب، وأن يظن الإنسان أنه متى سمى الظاهرة فقد استغنى عن سؤال معناها. قد تعرف كيف تكوّن السحاب، لكن معرفتك بكيفية التكوّن لا تجيب وحدها: من أنشأ المادة والقانون؟ ومن قدّر شروط الحدث؟ ومن أقام الكون بحيث تجري أسبابه بهذا الانتظام؟ إن تفسير الكيفية لا يلغي دلالة الوجود.

وفي الآية صورة من صور المكابرة التي قد تسكن النفس المؤمنة نفسها بدرجات أخف. قد يرسل الله إلى العبد من حياته ما يكشف له عيباً، فيعيد تفسيره كي يحافظ على صورته عن نفسه. ينهبه صديق إلى قسوة فيقول: الناس حساسون أكثر من اللازم. تتكرر آثار غضبه في بيته فيقول: إنما أربهم. يفشل بسبب إهماله فيقول: لم ينصفني أحد. وحين يصبح الإنسان ماهراً في إعادة تسمية أخطائه، يحرم نفسه نعمة التوبة؛ لأن التوبة لا تبدأ إلا حين يُسمّى الذنب ذنباً.

ومن الرحمة أن يبقى القلب قادراً على الاتهام الصادق لنفسه. إن أخطر مراحل المرض ليست اشتداد الألم، بل فقدان الإحساس به؛ لأن الألم قد يدفع إلى العلاج، أما الخدر فيسمح للداء أن يمتدّد في صمت. وكذلك الذنب: قد يكون شعور الإنسان بثقله أول أبواب النجاة، بينما يكون تزيينه باسم آخر بداية الاستقرار فيه. والإنسان لا يهلك لأنه أخطأ مرة، فقد فتح الله باب التوبة للخطّائين، وإنما يقترب من الهلاك حين يفقد القدرة على الاعتراف بأن الخطأ خطأ.

بعد أن بلغ عنادهم هذا الحد، يأتي الأمر: ﴿فَذَرَهُمْ﴾. وفي الكلمة شيء من التخلية بعد استيفاء البلاغ. ليست دعوة إلى ترك دعوتهم قبل إقامة الحجّة، فقد سبقها الأمر: ﴿فَذَرِكُمْ﴾، وجاءت السورة نفسها بما يوقظ العقل والقلب. وإنما هي لحظة يتوقف عندها

الجدل؛ لأن النقاش إذا صار وسيلةً للعب والنحوض لم يعد تكثير الكلام علاجاً. فهناك من يحتاج إلى مزيد بيان، وهناك من اتضح له البيان ثم اختار أن يحوله إلى ساحة مراوغة. إن معرفة متى نتكلم ومتى نذر من حكمة حامل الرسالة. فقد يتوهم بعض الدعاة أن واجبهم يقتضي مطاردة كل معاند في كل طريق، والإجابة عن السؤال نفسه مهما تبدلت أفقته. لكن القرآن يعلمهم ألا يسمحو للمستهزئ أن يستهلك أعمارهم في دائرة لا يريد لها نهاية. بلّغ، وبيّن، وأقم الحجّة، ثم دع للقلب مسؤوليته، والله حكمه. الهداية ليست نتيجة ضغط نفسي، والحق لا يفتقر إلى جدل بلا غاية كي يبقى حقاً.

لكن الأمر ﴿فَذَرُّهُمْ﴾ لا يصدر من يأس أو عجز. لم يقل: ذرهم لأنك لا تملك أمامهم شيئاً، بل: ﴿حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾. هناك موعد يتحرك نحوهم وإن توقف الحوار، ويوم ليس احتمالاً بعيداً بل يومهم المنسوب إليهم، كأنه ينتظرهم وهم يمشون إليه. يستطيعون أن يغادروا مجلس التذكير، لكنهم لا يستطيعون أن يغادروا الزمن المؤدي إلى الموعد.

﴿حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾. التعبير بالملاقاة يجعل اليوم كأنه قادم من الجهة الأخرى. هم يتقدمون في العمر نحوه، وهو يتقدم في القدر إليهم، وستقع الملاقاة عند الأجل الذي لا يتقدم ولا يتأخر. وكل يوم يمر ليس ابتعاداً عن الوعيد لأن العذاب لم يقع، بل اقتراب منه. غير أن الإنسان يقرأ تأخر الشيء بلغة أمنيته؛ فيحسب الإمهال إلغاءً، ويحسب طول الطريق دليلاً على عدم وجود النهاية. وربما كان بينه وبينها أقل مما يتصور.

واليوم يومهم؛ لا لأنهم يملكونه، بل لأنه اليوم الذي كذبوا به حتى صار أشد الأشياء اتصالاً بمصيرهم. لكل إنسان يوم يُنسب إليه بهذا المعنى؛ يوم تنكشف فيه خلاصة حياته، ويخرج من التعميم إلى المواجهة الفردية. يتحدث الناس عن الموت طويلاً كأنه خبر يخص النوع البشري، ثم يأتي لكل واحد موته هو؛ وتحدث الأمم عن القيامة كحدث كوني، ثم يقف كل امرئ فيها وقفته التي لا يقومها عنه أحد.

﴿الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾. الصعق يأخذ قوتهم وإدراكهم، ويهدم ما تبقى من وهم السيطرة. الذين كانوا يخططون ويتربصون ويكيدون، تصيبهم الصاعقة فلا يملكون لأنفسهم ثباتاً. وما بين قولهم الوائق في الدنيا: شاعر، كاهن، تقوله، وبين صعقتهم في الآخرة، تظهر هشاشة القوة التي احتما بها. كانت أصواتهم عالية لأن زمن الاختيار يسمح لهم بالكلام، لا لأنهم خرجوا عن سلطان الله.

ثم تصف السورة انهيار أدواتهم: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾. والكيد الذي كان محور ثقتهم لا ينفعهم شيئاً؛ لا يدفع قليلاً من العذاب، ولا يؤخر لحظةً من المصير، ولا يفتح ثغرةً في الحكم. لقد كان الكيد فعالاً في دائرة محدودة من الدنيا؛ يستطيع أن يشوه سمعة، أو يقطع رزقاً، أو يحبس جسداً، أو يؤخر ظهور الحق. لكنهم أخطؤوا حين نقلوا نجاحه المؤقت من مجال الأسباب إلى مقام السيادة، وظنوا أن قدرتهم على إيذاء المؤمنين تعني قدرتهم على مغالبة الله.

إن الله قد يسمح للكيد أن يحقق أثراً قريباً، فتنةً للكائد وامتحاناً للمؤمن، لكنه لا يسمح له أن يكتب النتيجة الأخيرة. والفرق كبير بين أن يملك الإنسان حدثاً، وأن يملك ماله. قد يشعل ناراً، لكنه لا يعلم إلى أي اتجاه تدفعها الريح، وقد يتكر مؤامرة، لكنه لا يعرف كيف يحولها الله إلى سبب في هدم مشروعه. وحده الله يرى الخيوط كلها، ولذلك لا يفهم التاريخ من لحظة انتصار الباطل وحدها، بل من العاقبة التي لا تزال تشكل وراء ستار الغيب.

﴿وَلَا هُمْ يُنصِرُونَ﴾. لا ينفعهم تدبيرهم من الداخل، ولا يأتيتهم إنقاذ من الخارج. سقط الكيد، وغاب الناصر، وبقي الإنسان أمام عمله. في الدنيا تتوزع قوته بين ما يصنعه بنفسه وما يحصل عليه من حلفائه؛ فإذا جاء ذلك اليوم بطل النعان. فلا الخطة تعمل، ولا الحجة تندخل، ولا الصديق يحمل، ولا الزعيم يشفع بغير إذن الله. إنها لحظة الفقر الكامل التي كانت حقيقتهم منذ البداية، لكن الأسباب أخفتها عنهم زمناً.

والنصرة التي تمنوها هناك كان بابها مفتوحاً لهم في الدنيا، لو نصروا الحق في أنفسهم. من نصر أمر الله على هواه نصره الله، ومن انتصر للظلم على مصلحته وجد أثر ذلك يوم تضعف الأسباب. أما من جعل حياته كيداً للحق، ثم طلب النصره عند انكشاف الحق، فقد طلب الثمرة بعد أن اقتلع شجرتها بيده.

ثم تفاجئهم السورة بأن العذاب ليس مؤجلاً كله إلى ذلك اليوم: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾. دون عذاب الآخرة عذاب أقرب؛ قد يكون في الدنيا بما ينزل بهم من عقوبات، وقد يكون في البرزخ قبل القيامة، واللفظ يتسع لصنوف من الجزاء تسبق اليوم الأكبر. فالظلم لا ينتظر دائماً آخر الزمان ليبدأ بإهلاك صاحبه، إنه يحمل شيئاً من عذابه في داخله منذ لحظة وقوعه.

فالظالم وإن بدا منتصراً يعيش أسيراً لمنظومة من الخوف. يخشى انكشاف الحقيقة، ويخشى تبدل القوة، ويخشى من أَعَانُوهُ أَنْ يَنْقَلِبُوا عَلَيْهِ، ويحتاج كل يوم إلى ظلم جديد يحمي به الظلم القديم. وقد يملك القصر ولا يملك النوم، ويحاصر شخصيته بسجنه بينما هو محاصر بها في ذاكرته. إن الضمير إذا بقي حياً عذبه، وإذا أماته فقد عاقب نفسه بفقدان أعظم ما فيه.

وللمعصية عذاب دون عذاب الآخرة كذلك: قسوة تسرق لذة المناجاة، ووحشة تجعل القلب غريباً عن ربه، واضطراب لا تسكنه كثرة الممتلكات، واحتياج متزايد إلى اللذة لأن أية لذة لم تعد تملأ الفراغ. وقد يظن الإنسان أن العقوبة لا تكون إلا في مرض أو فقر، مع أن من أشد العقوبات أن يُترك لذنبه، وأن يفقد الحس بفقده، وأن تنسع له أبواب الدنيا بينما يضيق الطريق بينه وبين الله.

وليس كل بلاء دينوي عقوبة، فقد يُبتلى الأتبياء والصالحون رفعاً لدرجاتهم، ولا يجوز أن نحكم على أعيان الناس من ظاهر مصائبهم. لكن المؤكد أن للظلم آثاراً تفسد صاحبه والعالم من حوله، وأن السنن لا تفصل بين العمل وثمرته. قد تتأخر الثمرة، وقد تظهر في موضع لا ينتظره الناس، لكنها لا تضع في كونه لا تقوم بالعدل.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. إنهم لا يعلمون أن بعض ما يعيشونه عذاب، لأن مقاييسهم للعافية اختلت. يظنون الغنى سلامة ولو كان القلب فقيراً، ويرون السلطة نجاة ولو كانت تسوق صاحبها إلى الهاوية، ويعدون القدرة على المعصية نجاحاً ولو كانت علامة استدراج. لقد قصروا العلم على ظاهر الأشياء، فلم يقرأوا ما تصنعه خياراتهم في أرواحهم.

وقد يعلمون بالمعلومة أن للظلم عاقبة، لكنهم لا يعلمون العلم الذي يردع؛ فالعلم في لغة القرآن ليس تراكم المعارف وحده، بل نور يهدي صاحبه إلى الموقف الصحيح. وإذا بقيت المعرفة عاجزة عن تغيير السلوك، كانت حجة على صاحبها أكثر مما كانت نجاة له. ما قيمة أن يعرف الإنسان اسم السم ثم يشربه؟ وما قيمة أن يحسن الحديث عن الحساب ثم يرتب حياته كأن لا حساب؟

وبهذه الآيات تكتمل صورة المكذبين: إنهم يعيدون تسمية الآية، ويصرون على الكيد، ويمشون نحو يومهم، ثم يسقط عنهم الكيد والنصير. لكن السورة لا تحتم بالمكذبين، ولا تترك عين النبي ﷺ معلقة بمصيرهم. إنها تنقله من مراقبة ما يفعلون إلى الاحتماء بما يفعله الله، ومن قسوة الخارج إلى سكينه القرب، ومن انتظار اليوم الذي يصعقون فيه إلى عبادة

الحاضر الذي ينبغي أن يصبر فيه ويسبح. وهنا تبلغ السورة ذروتها الروحية في خطابٍ لو
نزل على قلب مثقل وحده لكفاه: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

حين يكون العالم مضطرباً وأنت بعين الله

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾

بعد القسم والوعيد، وبعد النار والجنة، وبعد التهم والأسئلة والكيد، تصل السورة إلى النبي ﷺ بكلمة الصبر. كأن تلك الرحلة الكونية كلها كانت تهيئ القلب لهذا التكليف: ﴿وَاصْبِرْ﴾. فالحق واضح، لكن حمله شاق؛ ووعد الله ثابت، لكن الطريق إليه يمر عبر زمن طويل لا تظهر فيه الحكمة كاملةً. والصبر هو الجسر بين ما نعرفه من صدق الوعد وما لم نره بعد من تحقيقه.

لم تقل الآية: واصبر على قومك فحسب، ولا: اصبر على أذاهم؛ بل قالت: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾. واللام هنا ترفع الصبر من مجرد احتمال للألم إلى عبادة مقصودة لله. قد يصبر الإنسان لأنه لا يملك حيلة، وقد يسكت لأن ضعفه يمنعه من الرد، لكن صبر النبي ﷺ صبر لله؛ يثبت لأن ربه أمره، وينتظر لأن ربه يحكم، ولا يسمح لألم الطريق أن يخرج به عن حدود الرسالة.

والصبر لحكم ربك يشمل الصبر على حكمه الشرعي، بالثبات على الطاعة والبلاغ، والصبر لحكمه القدري، باحتمال ما يجري من أذى وتأخر للنصر. فأنت لا تختار كل أحداث الطريق، لكنك تختار كيف تعبد الله داخلها. قد يُحكم عليك أن تمر بمرحلة لا تفهم غايتها، وأن تبقى في موضع تتقي مغادرته، وأن ترى أبواباً مغلقة مع صدق سعيك. وهنا لا يكون الإيمان أن تعرف سر كل شيء، بل أن تثق بمن يحكم وإن غاب عنك وجه الحكم.

إن كثيراً من تعب الإنسان لا يأتي من الألم وحده، بل من مقاومته الداخلية لفكرة أن يقع ما لا يريد. يستهلك قلبه في السؤال: لماذا لم يجر الأمر وفق خطتي؟ ولماذا تأخرت الإجابة؟ ولماذا مُنح غيري ما حُرمت؟ فإذا انتقل من محاكمة القدر إلى عبادة الله فيه، لم يخف الألم كله، لكنه خرج من العبث. صار البلاء موضع صبر، والانتظار موضع رجاء، والعجز موضع افتقار، والخسارة الظاهرة موضعاً قد يبني الله فيه رجاً لا يراه الآن.

﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾. مرةً أخرى تحضر الربوبية قبل أن يُذكر الأمان. إنه حكم ربك، لا حكم قوة غريبة عنك، ولا تديير من لا يعرف ضعفك. الذي يقدر الطريق هو الذي رباك بنعمه، ويعلم قلبك، ويريد أن يبلغ بك غاية لا تراها من موضعك المحدود. وإذا فصل الإنسان الحكم عن الربوبية بدا القدر بارداً قاسياً، أما إذا رآه صادراً عن الرب الحكيم الرحيم، أمكنه أن يصبر ولو بقي الجرح يؤلمه.

ولا يعني ذلك أن كل مؤلم محبوب لذاته، أو أن المؤمن لا يحزن. لقد حزن الأنبياء، وبكوا، واشتكوا إلى الله؛ لكن الحزن لم يتحول عندهم إلى سوء ظن به، والشكوى إليه لم تتحول إلى شكوى منه. الصبر ليس موت الإحساس، بل بقاء الاتجاه إلى الله بينما نتألم. قد ترتجف الروح، لكنها لا تهرب إلى غيره؛ وقد تبكي العين، لكن القلب لا يعترض على حكمته.

ثم تأتي الجملة التي يحمل كل حرف منها طمأنينةً لا تستنفد: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. لم يقل له فقط: نحن نراك، مع أن الرؤية حق، بل جاء التعبير بصورة من العناية والحفظ والمراقبة الخاصة، على الوجه اللائق بجلال الله من غير تشبيه ولا تكيف. أنت في حفظنا ورعايتنا، لا تغيب عنا لحظةً، ولا يسقط أملك خارج علمنا، ولا يصل إليك شيء إلا ونحن محيطون بك.

إنها كلمة تُعيد ترتيب الطريق كله. قد تكون وحدك في ظاهر الأرض، لكنك لست متروكاً. قد يحيط بك المكذبون، لكنهم لا يحيطون بك حقاً؛ لأنك داخل رعاية أوسع من حصارهم. قد لا يرى الناس دمك الداخلي، ولا يفهمون ثقل ما تحمل، لكنك بأعيننا. وما دام الله يرى، فليس شرطاً لثباتك أن يفهمك الجميع؛ وما دام الله يحفظ، فليست سلامتك متوقفةً على أن تملك جميع وسائل الدفاع.

وليس معنى العناية أن الطريق يخلو من الألم؛ فالخطاب نزل على النبي ﷺ وهو مأمور بالصبر، ولو كانت الرعاية تعني غياب الشدة لما احتيج إلى الصبر. لكن معناها أن الألم نفسه لا يقع خارج التدبير، وأن الجرح لا يضيع، وأن العدو لا يملك من أمرك إلا ما أذن له ابتلاءً، وأن كل لحظة ثبات محفوظة في ميزان الله. الرعاية ليست دائماً منع النار، فقد تكون جعلها برداً وسلاماً؛ وليست دائماً إخراجك من البئر فوراً، فقد تكون بناء الطريق إلى الملك من قاع البئر.

كم يحتاج القلب إلى هذه الآية حين يطول عليه الطريق! يحتاجها المظلوم الذي لا يستطيع إيصال صوته، والمصلح الذي يرى كلماته تُحرف، والأم التي تخفي وجعها كي لا ينهار

أبناءؤها، والمريض الذي لا يقدر أحد أن يدخل موضع ألمه، والغريب الذي ينام بعيداً عن أهله، والتائب الذي يجاهد ماضيه في صمت. لكل هؤلاء تقول الآية: قد لا تكونون في عين الناس، لكنكم لستم خارج عين الله وعلمه ورعايته.

وأرفع ما في العناية أنها ليست معلقةً بقدرة العبد على شرح نفسه. البشر لا يرون إلا ما يظهر، وقد يسيئون فهم الصمت والدموع والقرارات، أما الله فيعلم الدافع قبل الفعل، ويعرف مقدار المقاومة التي سبقت السقوط، ومقدار الصدق الذي صاحب النهوض. وهذا لا يبرر الخطأ، لكنه يفتح باب الرجاء؛ لأن الذي يحاسبك هو الذي يعرف قصتك كاملةً، لا صورتها المبثورة في عين الخلق.

وإذا استقرت ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ في القلب، خَفَّ تعلقه بالمراقبة البشرية. لا يعود مضطراً إلى عرض كل طاعة ليصدق، ولا إلى شرح كل موقف ليُعذر، ولا إلى صناعة صورة كاملة في أذهان الناس. يحسن ما استطاع، ويصلح خطأه إذا أخطأ، ثم يسكن إلى علم الله. وما أوسع الحرية التي يمنحها للإنسان أن يكون صادقاً في عين واحدة تغنيه عن التمثل أمام آلاف العيون!

لكن السكينة القرآنية لا تنتهي إلى الراحة السلبية. فما إن يقال له: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ حتى يأتي الأمر: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾. فالشعور بالعناية ينبغي أن يتحول إلى عبادة. لا يكفي أن تشدوا الروح بمعنى الحفاظ؛ عليها أن ترد على النعمة بالتسبيح والحمد. وهكذا لا يجعل القرآن الطمأنينة غايةً نفسيةً مستقلة، بل طاقةً تعيد العبد إلى وظيفته.

والتسبيح تنزيه لله عن كل نقص لا يليق به؛ تنزيهه عن العبث في حكمه، وعن العجز في تأخر نصره، وعن الغفلة عن أوليائه، وعن الظلم في تقديره. حين يشتد البلاء قد تنسلل إلى النفس تصورات لا تجرؤ على قولها: لماذا تأخر الفرج؟ هل غاب عن الله ما يحدث؟ هل تُركنا وحدنا؟ فيأتي التسبيح ليصحح صورة الله في القلب قبل أن يطلب تغير الواقع: سبحان الله، ما غاب ولا عجز ولا ظلم، وإنما له حكمة لم يبلغها بصري.

والحمد اعتراف بأن لله الكمال والنعمة حتى في الطريق الذي لم تفهمه بعد. وقد يسهل الحمد بعد انكشاف العطاء، لكن مقامه الأعظم أن تحمد وأنت تنتظر؛ لا لأنك تنلذذ بالألم، بل لأن معرفتك بربك أكبر من معرفتك بالحادثة. أنت لا تقول إن الجرح جميل، وإنما تقول إن ربي محمود في حكمه، وإن وراء ما لا أفهمه علماً ورحمة.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾. اجتمع التنزيه والحمد ليصنعا رؤية متوازنة: تنزهه عن النقص، وثبت له الكمال؛ تنفي عنه ما لا يليق، وتعترف بما له من المحامد. وقد ينجو الإنسان من سوء الظن الظاهر، لكنه يتعامل مع الله في قلبه كأن القدر مجرد حرمان. فيأتي الحمد ليعيد اكتشاف النعم التي ما زالت قائمة وسط المفقود. ليس كل شيء قد ضاع؛ ما دام الله ربك، فقد بقي الأصل الذي تستمد منه الأشياء قيمتها.

﴿حِينَ تَقُومُ﴾. ما أوسع هذا الوقت! حين تقوم إلى الصلاة، وحين تقوم من مجلسك، وحين تنهض من نومك، وفي المواطن التي يشرع فيها الذكر. وكأن الحركة اليومية نفسها ينبغي أن تبدأ بالتسبيح. فالإنسان يقوم مرات كثيرة؛ من نوم إلى يوم، ومن جلوس إلى عمل، ومن حال إلى حال. وإذا صحب التسبيح قيامه، لم تعد حركاته انتقالات جسدية صامتة، بل أبواباً متكررة للعودة إلى الله.

إن الحياة تشكل من لحظات صغيرة أكثر مما تشكل من الأحداث الكبرى. ومن انتظر اللحظة الاستثنائية ليعبد الله قد يضيع أكثر عمره، أما من جعل حين تقوم موعداً للذكر فقد حوّل المتكرر إلى طريق. يقوم فيحمد، ويبدأ فيستعين، ويتحرك وهو واعي بمن حفظه في سكونه. هكذا يدخل الله في نسيج اليوم، لا في هامشه فقط.

ولعل في الأمر بالتسبيح حين يقوم النبي ﷺ ثباتاً له عند مواجهة الناس. فهو يقوم إلى الدعوة، ويقوم إلى الصلاة، ويقوم في مجالس يسمع فيها ما يؤذيه؛ فليكن أول ما يبنى داخله تنزيه ربه وحده، حتى لا تحدد كلمات المكذبين إيقاع قلبه. من دخل على الناس ممثلاً بالله لم يفرغوه بسهولة، ومن استمد قيمته من الحمد لم تهدمه سخرية البشر.

ثم تمتد العبادة إلى الليل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾. في النهار يواجه النبي ﷺ ضجيج القوم، وفي الليل يعود إلى الهدوء الذي ترمم فيه الروح. وليس الليل فراغاً بين يومين، بل مساحة يخف فيها حضور الخلق، فيصفو حضور الخالق في القلب. حين تنطفئ الأصوات وتغلق الأبواب، يظهر للإنسان مقدار أنسه بالله؛ فمن كان لا يعرف نفسه إلا وسط حركة الناس قد يخاف الخلوة، أما من وجد باب المناجاة فقد يصير الليل أوسع أوطان روحه.

الليل لا يغير حقيقة الإنسان، لكنه يكشفها. في النهار تصنع المواعيد والوجوه نظامنا، أما في الليل فتستقط المراقبة البشرية. هنا تظهر الطاعة التي لا تنتظر شاهداً، والدمعة التي لا تبحث عن مواساة، والدعاء الذي لا يسمعه إلا الله. ولعل بعض الأعمال الصغيرة في ظلمة

الليل أثقل في الميزان من أعمال عظيمة أحاطت بها العيون؛ لأن الخفاء يحزر العبادة من طلب المكانة.

﴿فَسِّحْهُ﴾. وجاء الضمير عائداً إلى الله مباشرة، كأن الليل يختصر المسافات. سبحه هو؛ لا لتطلب إعجاب الناس بخشوعك، ولا لتصنع هويةً روحيةً أمامهم، بل لأنك عرفته مستحقاً للتسبيح. العبادة الخالصة لا تحتاج جمهوراً؛ يكفيها أن الله يسمعها. وقد تكون الخلوة هي الموضع الذي يعود فيه العمل إلى نقائه بعدما أثقلته نظرات البشر.

ومن الليل تبدأ معالجة جراح النهار. ما جمعه القلب من كلمات وأذى وقلق يجد في التسبيح باباً للتطهير. فبدل أن يعيد الإنسان محادثاته المؤلمة طوال الليل، يعيد قلبه إلى عظمة الله؛ وبدل أن يوسّع صورة خصمه في نفسه، يوسّع معنى ربه. ليست كل مشكلة تحتاج قبل النوم إلى مزيد من التفكير؛ بعض المشكلات تحتاج إلى سجدة تعيدها إلى جمعها الصحيح.

ثم تختم السورة بهذه الصورة الرقيقة: ﴿وَادْبَارَ النُّجُومِ﴾. النجوم التي ظهرت في ظلمة الليل تبدأ بالانصراف عند اقتراب الفجر. وكأن السورة تمسك بيد المؤمن حتى آخر الليل، ثم تقف به عند اللحظة التي يتراجع فيها الظلام ويولد النور. بعد أن بدأت بالطور والكآب والسقف والبحر، وخاضت مشاهد القيامة والنار والكيد، تنتهي عند نجوم تدبر في سكون. ما أجمل أن تكون خاتمة سورة الطور هي التسبيح عند الفجر! فالؤمن لا يخرج من مواجهة الباطل بالجدل وحده، بل يخرج منها أكثر عبادة. لا تسمح السورة للمكذبين أن تكون كلماتهم آخر ما يملأ القلب؛ آخر ما يبقى هو حمد الرب، وتسبيحه في الليل، وانتظار الضوء عند إدبار النجوم. البشر يتكلمون، لكن كلامهم ينقضي؛ والليل يطول، لكنه يدبر؛ والنجوم نفسها التي بدت ثابتة في قلب الظلام تنسحب حين يأتي موعد النور.

وفي إدبار النجوم وعد خفي لكل قلب طال ليله. لا ليل يبقى على صورة واحدة، وإن خُيل للبتل أن الفجر نسي طريقه. النجوم التي تراها فوقك ليست دليلاً على دوام الظلمة، بل قد تكون العلامات الأخيرة قبل ظهور الضوء. والمحنة حين تبلغ قلبها الأشد قد تكون قد بدأت تدبر، لكن الإنسان لا يرى حركتها لأنه واقف داخلها. ومن هنا كان التسبيح عبادة الانتظار؛ تعبد الله قبل انكشاف الفجر، وتعلن ثقتك بالنور وهو لا يزال وراء الأفق.

إن النبي ﷺ مأمور أن يصبر لأنه بأعين الله، وأن يسبح حتى إدبار النجوم؛ أي أن الطريق لا يُقطع بقوة المواجهة وحدها، بل يزداد العبودية. من حمل هم الرسالة بلا صلاة أرقه

الناس، ومن قاوم الباطل دون أن يملأ قلبه بالحمد قد يتشرب شيئاً من قسوته، ومن ظل ينظر إلى كيد الخصوم دون أن يرفع نظره إلى عين الرعاية أكل الخوف روحه. ولهذا تختم السورة بتربية الداخل بعد أن كشفت فساد الخارج.

من رهبة الطور إلى سكينه الفجر

بدأنا الرحلة أمام الطور، حيث ذاكرة الوحي والجلال، ثم مررنا بالكأب المسطور، والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور. وكان كل شيء يهئ القلب لسماع الحقيقة: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۖ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾. ثم رأينا السماء تمور، والجبال تسير، والمكذبين يدعون إلى النار دعاءً، فعلبنا أن ثبات العالم مؤقت، وأن الشيء الوحيد الذي نعبه به انهياره هو العمل.

ثم فتحت السورة أبواب الجنة، فرأينا المتقين في جنات ونعيم، ورأينا أن النجاة لا تحو الحكاية القديمة، بل تمنحها معناها الكامل. أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، ثم اختصروا سر الطريق في كلمات قليلة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۖ فَنَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾. كانوا يخافون، لكن خوفهم لم يكن يأساً؛ كان يقودهم إلى الدعاء. وعندما نجوا، لم ينسبوا النجاة إلى أنفسهم؛ قالوا: من الله علينا. وهكذا علمتنا السورة أن الإيمان الحق يجمع بين خشية تمنع الغفلة، ورجاء يمنع القنوط، وعمل يمنع التمني، وشعور بالمنة يمنع العجب.

ورأينا رحمة الله تجمع الذرية المؤمنة بآبائها، فعرفنا أن البيت المؤمن ليس مشروعاً للحياة القصيرة وحدها، بل نواة اجتماع أبدي. وأن أعظم ما يورثه الوالد لولده ليس اسماً ولا مالاً، بل إيماناً يجعله أهلاً لأن يقال فيه: ﴿الْحَقُّنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾. فالنجاح الأسري لا يقاس فقط بما بلغ إليه الأبناء في الدنيا، بل بالوجهة التي تسير إليها أرواحهم.

ثم عدنا إلى النبي ﷺ وهو يحمل الرسالة بين التهم. سموه كاهناً ومجنوناً وشاعراً ومتقولاً، ولم تكن كثرة أسمائهم دليلاً على تعدد الحقائق، بل على اضطراب الهاربين من حقيقة واحدة. وتعلمنا أن الباطل حين يعجز عن رد الفكرة يحاول تشويه حاملها، وأن المؤمن لا ينبغي أن يسمح للتهم بأن تنقله من مهمته إلى دوامة الدفاع عن ذاته. كلمة الله له: ﴿فَذَكِّرْ﴾؛ امض في وظيفتك، ودع الحقيقة تكشف عجز أسمائهم.

ثم وقفت السورة بالإنسان أمام أصل وجوده: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾. وسقطت جميع احتمالات الاستقلال. لم نخلق أنفسنا، ولم نخلق السماوات والأرض، وليست عندنا خزائن الله، ولنا المسيطرين، ولا نصعد إلى السماء لنستمع إلى الغيب، ولا نملك الغيب فنكتب. نحن مخلوقون، محتاجون، محاطون بملك الله من بدايتنا إلى نهايتنا. وما التوحيد إلا أن تعيش هذه الحقيقة بدل أن تكتفي بقولها.

وكشفت السورة أن مشكلة المكذب قد تبلغ حدًا لا تنفع معه كثرة الآيات؛ يرى كسفًا من السماء ساقطًا فيقول: سخاب مراكوم. فقدرة الإنسان على إعادة تسمية الحقيقة إحدى أخطر وسائل هروبه منها. يسمي الذنب حرية، والطغيان قوة، والغفلة راحة، والنجاة مصادفة، ثم يعيش داخل عالم من الأسماء التي صنعها كيلا يواجه حقائق الأشياء. ومن أراد الهداية فعليه أن يطلب من الله صدق البصيرة قبل كثرة المشاهد.

ثم سقط الكيد: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. وبقي حكم الله. وهنا جاءت الكلمة التي جمعت كل ما تحتاجه الروح لمواصلة الطريق: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. ليست قيمتك في أن يراك الناس، ولا سلامتك في أن ترضى عنك القوى، ولا نصرتك في أن تعرف كيف ستنتهي المعركة. يكفيك أن تكون لله، وأن تعلم أنك في حفظه وعلمه ورعايته.

لقد بدأت السورة بعالم يستعد للاهتزاز، وانتهت بقلب ينبغي أن يبقى ثابتًا. السماء تمور، والجبال تسير، والكيد يحيط، لكن المؤمن بأعين الله. وهذا هو اليقين الذي تريد السورة بناءه: ليس يقينًا بأن الأشياء لن تتغير، بل يقينًا بأن الله لا يتغير، وليس طمأنينة إلى بقاء الأسباب، بل طمأنينة إلى مسببها؛ وليس وعدًا بأن الطريق لن يؤلمك، بل بأنك لن تترك وحدك في ألمه.

وتبدأ السورة بجبل ارتبط بلحظة الوحي، وتنتهي بنجوم تنسحب أمام الفجر. وبين الجبل والفجر رحلة قلب: يسمع، ويخاف، ويتذكر، ويحاجج أوهامه، ويصبر، ثم يسبح. كأن القرآن يقول: إذا اضطرب فوقك سقف العالم، فلا تجعل اضطرابه ينتقل إلى أصل يقينك. ارفع قلبك إلى من رفع السقف أول مرة، واعلم أن يده التي أمسكت السماء كل هذه القرون قادرة على أن تمسك قلبك في أشد ساعات الطريق.

فإذا قرأت سورة الطور مرة أخرى، فلا تمر على قول الله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ كأنها كلمة عزاء عابرة. قف عندها بكل تعبك. ضع فيها أسماء الذين فقدتهم، وجراح الطرق التي لم تكتمل، والاتهامات التي لم تستطع ردها، والدعوات التي طال انتظارها، والخوف على أهلك وإيمانك وخاتمك. ثم اسمعها كأنها تنزل الآن على موضع الملك: أنت لست منسيًا، ولا متروكًا، ولا غائبًا عن علم ربك.

وبعدها قم وسبح. لا تنتظر أن تتغير الأشياء كلها حتى تحمد الله؛ فقد يكون الحمد هو الذي يغير قلبك لتستطيع عبور الأشياء. وسبحه في الليل حين لا يراك أحد، وحين يضيّق صدرك

بما لا تستطيع شرحه، وحين يخيّل إليك أن الظلام استقر. سبّحه حتى تبدأ النجوم بالإدبار، وحتى تعلم أن الله الذي يخرج النور من آخر الليل قادر على أن يخرج من أشد أقدارك فجراً لم تره قادماً.

وهكذا تنتهي سورة الطور، لا عند صعقة المكذّبين، بل عند تسبيح المؤمنين؛ لا عند كيد الأرض، بل عند رعاية السماء؛ لا عند ظلمة الليل، بل عند إدبار النجوم. وكأن آخر رسالتها للقلب:

قد تمور السماء، وقد تسير الجبال، وقد يعلو ضجيج المكذّبين، وقد يطول الليل؛ لكنك ما دمت صابراً لحكم ربك، مسيحاً بحمده، فلست وحدك في هذا الكون الهائل.
إنك بأعين الله.